

من أجل ولدي



من اہل دلیری

قصة الحب العائلي والمرأة في صورها الأربع :
أم وزوجة وحبيبة وعشيقة

مِنْ أَجْلِ وَلِيِّ

محمد عبد الحكيم عابد

١٩٩٠

مكتبة مصر

سعيد جودة السحار

٢ شارع كامل صفي

"النجاة" القاهرة



منذ سبعة وثلاثين عاما بدأت قصة حياتي ...
سأقصها عليك يا صديقي بكل ما فيها لأنها لا تخصني وحدي .. إن
التجارب المشتركة أشبه بمصابيح السماء تهدي نورها لكل جيل وتثر
ضوءها على كل قطر .

* * *

لما أدار ألى المفتاح في باب المسكن الخارجى ، كان الليل قد جاوز
منتصفه .

واتجه نحو الداخل مارا بحجرة أُمى الواقعة على اليمين والتي كان النور فيها
لا يزال مشعلا ، فتوقف وأطل من خصاص بابها ثم انصرف لينام في
حجرة أخرى وعلى وجهه علامات استمزاز ، فقد سمعها تن .
كان في حالة لا يستطيع معها أن يصنع شيئا لأنه سكران .

وفي حجرة أخرى بات يتلوى من آلام المعدة .. وفي الحجرة المجاورة باتت أمى تن ... وظلت تن وتتوجع حتى مطلع الفجر . ثم حدث لها ما لم يكن في حسابها ولا حساب الطبيب نفسه . إذ ولدت غلاما ذكرا ، أبوه في غيبوبة كحولية تخف وتثقل وتولد الخيالات .

أما ذلك الغلام فهو .. أنا !!

وعند الصباح أخذ أبى إجازة فلم يذهب إلى عمله . ورفع إلى الله وجهه الجميل الشاحب وابتهل بفم فاحت منه رائحة الخمر : أن أعيش !! ودمعت عيناه . وسمع الله دعاء السكران ... يديل أننى عشت . ونذر للسماء نذرا عظيما هو أننى إن نجوت من قبضة الموت ليغيرن سلوكه وليبدأن حياة نظيفة .

كانا يفقدان كل من بلدان في سن محددة لا تكاد تتجاوز ثلاثة أعوام . وإذا عاد أبى من الخارج ببقية من وعيه كان يناقش هذا الموضوع مناقشة السكارى الأذكىاء . فهو ولا شك يفكر فيه طول النهار ، خصوصاً في الساعات التى يخلوها بنفسه في المكتب أو الفراش . حتى إذا دخل الليل طفت أفكاره على السطح ... كأنما عومتها الخمر ...

ويدير المفتاح الذى يحميه في جيبه في الباب الخارجى حتى لا يزعج أمى ، ثم يدخل . فإذا كان غير متعب ومضت بقية مرجه في ظلمة المأساة فيتناول المشكلة باستخفاف لا يخلو من فلسفة أو فلسفة لا تخلو من سداجة .

— في أحشائك جنين يا سيدنى ... نعم .. أنا أعلم ذلك . لكن . . . موقفنا من الذرية مضحك للغاية . هو كما وصفه تماما « بكر أفندى » العريد السليط اللسان ... قال لى ذات ليلة ونحن في الحانة :

— لماذا تخطف الحداة كتاكيتك أيها المنحوس؟! وضحك المخمورون
 ليلبذ وأسقطت قدحى الفارغ على البلاط فتطايرت شظايا الزجاج ...
 ومنذ ذلك اليوم وأنا أفكر ...

فتقول له أمى فى استسلام الذين يسألون عما يعلمون :

— وفى ماذا تفكر؟!

— الذين لا تلد نساؤهم أطفالا قد يسرحون بالطلاق . وقد
 يضمون إليهن امرأة ولودا ضالحة لإنماء الزرع . لكن ... ماذا يعمل
 الرجال فى النساء اللاتى يموت أطفالهن ؟

— طيب . وماذا تعمل النساء فى الرجال الذين يموت أطفالهم؟! .

— هذا مضحك حقا .. إن المشكلة كما ترين راجعة للقدر .. أليس
 كذلك يا سيدى ؟ ... حداة تخطف كتاكيت !! لعنة الله عليك
 يا « بكر » ... كم أتمنى أن يعيش لى ولد واحد لأرد على تهكماته ... إنه
 يؤكد أن البنور بطبعها غير جيدة ... ويقسم أن أطفاله يستحمون فى
 الحارة بماء المطر المتخلف ويعيدون نحت قشر البطيخ الذى يلقي من النوافذ
 بعد أن يلتقطوه من الأرض .. وأن أردافهم تبيت عارية طول الليل
 بلا لباس ولا لحاف ومع ذلك ها .. ها .. ها .. لم تستطع الحداة أن
 تخطف منهم كتكوتا .

— آه ...

— آ .. وفى الصباح .. وفى كل يوم .. أجلس على مكتب الحكومة
 لأؤدى عملى الغريب . إثبات المواليد فى دفتر المواليد !!

— هيه ...

— مائة مولود على الأقل أثبت كل يوم بقلمى المتواضع أنهم اتصلوا بالحياة (ثم يقول بكبرياء) : يعنى بعد أن يفرغ الله من قيد اسمهم ورزقهم في دفتره ... يأتي دورى أنا !! ... أنا العبد الفقير العاجز الضعيف ... يأتي عملى بالنسبة للمواليد بعد عمل الله مباشرة ... (ثم يعلوه انكسار وذل وضعف ويقول) : كل هذا وأنا لا أولاد لي !

ويطرق ، وتسكت أمى لا ترد . إنها لا تستطيع أن تفرق بين الفلسفة والمذيان كلاهما في ذهنها غامض غموض الآلة المعقدة : فخير لها إذن ألا تتكلم ... وتعاوده الحماسة بعد قليل :
— الله نفسه ... لا أولاد له . لكن ... لم يحدث مرة أن الحداة خطفت أحد كتابيته ...

— أستغفر الله العظيم ... سكر وكفر !!
— هلم لننام . لا تحملينا على المزيد منهما . لعنة الله على « بكر افندى » . إن جو الحجرة الليلة مرتفع الحرارة . لا تنسى أن توقظينى باكرا في الصباح !

ويعود إلى كتابة المواليد ، وفي المساء يذهب إلى الحانة ... حتى إذا ما وضعت زوجته مولودا استعاذ بالله من شر النعمة . ويلقى على وجهه النظرة الأولى ثم يتراقص في وسط الحجرة .

— عدد سكان الأرض زاد اليوم بضعة ملايين يا عزيزتى . هل تتصورين أنك ولدت ثمانية ملايين دفعة واحدة ؟! ... ستختفى الخرائب من المدينة منذ مطلع الشمس ...

فتقول أمى في اعتزاز من ولدت ذكرا وضعف المرأة النفساء :
— كفى ... كفى ... إن الفرحة تكاد تطير بك .

— أنا لست فرحا . كنت أود أن أكون غنيا لأستطيع أن أفرح .
الفرحة الحقيقية التي تتكاثر وتنمو فتفيض على قلوب الآخرين .. آه ..
ليتني كنت غنيا .. إذن لبنيت مستشفى للولادة ... ومستشفى لمعالجة
النساء من العقم . ومستشفى لأمراض الأطفال .. ثمانية ملايين ولدتهم
اليوم ...

وعند عودته ظهر اليوم ودخله على الوالدة وهي في فراشها يشرع في
التحدث عن وجوه الأطفال التي رآها في قطار الضاحية :

— كانوا كأنما ينظرون إلى ليسألوا عن فؤاد .. في عيونهم نلوة الحب
وعلى شفاههم حلاوة الدر أو طعم الشيكولاتة .. اسمعى ينبغى لنا أن نغير
نخطتنا في تربية الأطفال . لقد أقسمت ليلة أمس قسما عظيما أن أنتهج
معهم نفس الطريقة التي اختارها « بكر افندى » في تربية مواشيه .
سأجعل هذا الوليد ينام بلا غطاء ويستحم في الحارة بمياه المطر المتخلفة
على الأرض . وسأجمع له بنفسى قشر البطيخ ليعيد نحتة . آه ...
ويعيش !! .. يعيش فقط يارب !!

وتغرورق عيناه بالدموع : والأم في الفراش راقدة على ظهرها يياض
وجها أقرب إلى يياض الثوب . وصدرها مشحون بالدر شأن كل منهل
متفجر . وعلى شفها ابتسامة رثاء وخوف وابتهاال .

كان لهما في صحراء (حلوان) ثلاثة هياكل صغيرة لثلاثة أطفال ..
دفنوا على التوالي . في بحر عشر سنوات في الحد واحد .
والأم امرأة غير ولود لا يتلاحق أطفالها ثلاث سنوات أو أربع بين
الطفل والطفل .

ومنظر الهيكل الصغير مثير للغاية . أتلّف أعصاب أبي عشرة أيام لم يفق فيها من السكر . على أنه لم يكن لأحد من أولاده بل كان لطفل غريب . لكنه لم يستطع أن ينسى القفص الصلري الصغير « الذي لم يلوّثه دخان السجائر ولا كراهة الناس » على حد تعبيره .

ويتغيب أبي عن الحانة بضع ليال متتابة بعد ميلاد كل طفل . وعندما تخف الفرحة . تنبعث المخاوف . وتمثل له الطمأنينة في اتصاله بأصدقائه في الليل . وتلعلع ضحكاتهم في الركن المحجوز باستمرار ويهتفون عندما يدخل عليهم :

— حمدا لله على سلامتك ... هل فات السبوع ؟! هذا هو ما ظنناه بالضبط !! تعال . تعال !!

ثم يصفقون بكف واحدة لأنهم يريدون أن يفقدوا رشدهم جميعا على حساب أبي في الليلة البيضاء .



ولم ير أئى بوعدله ولو أنه أقسم قسما عظيما ...
 كانا يخافان على من نسيم الحديقة إذا زقرقت به المصاريع فى ليلالى
 الحر . ويدثراننى ويبخراننى ويذهبانى إلى الطبيب . فلما سألته أمى
 ضاحكة : ولماذا لا تربية كما يرى « بكر افندى » ، كما اتفقنا من قبل ؟
 أبهرع غير فاقده حجته قائلا : إنه من العبث أن نغرس الورد بطريقة الصبار
 أو نغرس الصبار بطريقة الورد . كنت أود ذلك من صميم نفسى لكننى
 أحافظ عليه حتى إذا ما فقدناه لم يكن هناك مجال لتأنيب نفسى على
 الإهمال ! .

ثم غيرت الأيام نظامها بالنسبة لأبوى تغييرا كاملا . لم يشأ الله أن
 يدعهما فريسة للقلق فلم يعد أئى يتوقع أن يطلب فجأة إلى (حلوان) لأن

ابنه في حالة سيئة . والأم لا تريد أن تحمل المسؤولية وحدها . وأصبح يثبت أسماء المواليد بقلب أكثر طمأنينة وكاد ينسى أنه في يوم ما كان من المحرومين .

والذي حدث هو أن أمي بعد عامين من ميلادي شعرت أنها حامل . وإذا لم يكن هناك علاقة حقيقية بين العمرين ، ولا بين ما في نفوسنا من مخاوف وما في الخارج من حقائق — لكن يحدث في الغالب أن عود الثقب الوحيد كثيرا ما تتصدى له الريح فتطفئه ما دمنا محتاجين إليه . فكان الجنين الذي نبت في أحشائها أصبحت حياته ضمنا لحياي في وقته رصيذا لقوتي وإن كنت أنا تحت نور الشمس وهو لا يزال في ظلمة الأرحام . وأكد أبي أن هجمات السعال خفت وكفت عني . وأن الإسهال والإمساك تصالحا وتلاقيا معا فمحتاجي طبيعة سليمة . وأن بكائي في الليل لم يعد يزعجه كثيرا . كل هذا لأن أمي قد حملت ... هل تستطيع أن تدلني على العلاقة؟! وشيئا فشيئا ، وعلى التدرج نسيا الأجل الموعود الذي كانت الحداة تخطف فيه كتابتيهما . ونسيت الهياكل الصغيرة المدفونة في صحراء « حلوان » لأنه ما حل الموعد الثالث لميلادي حتى انتعش البيت بصرخة لمولودة أخرى ... هي أختي (بدرية) .

ولم يبرأني بوعده — مرة أخرى — ولو أنه أقسم قسما عظيما .. لا في طريقة تربيته للطفلة ولا في طريقة سلوكه في الحياة . ظل كما هو . رجلا ذكيا وسيما قوى البنية والشخصية يثبت بقلمه أسماء المواليد في النهار ويقرأ الصحف والمجلات وبعض الكتب في أي وقت ويرجع إلى البيت عند الظهر . حتى إذا ما هبط المساء ذهب إلى الحانة ... إلى حيث يشربون ويتسامرون ويلقون على حوادث النهار بإدراك ليلي مخدر .

ولم تستطع أُمى أن تحوله عن منهاجه . كان يتركها وحيدة أيام زمان قبل أن تلد ويسهر في الخارج . يفعل ذلك في ليالٍ من طبعها أن ترعب . من تلك التي شرع الناس فيها شرعة التجمع .. هي ليالي الحزن . حين يصاب البيت في يوم من الأيام بالخرس عندما يخطف الموت طفله الوحيد .

ولم يكن أى يتقبل عزاء . كان يذهب إلى هناك ليتعزى . في الركن المحجوز باستمرار في أقصى اليمين . ويتلقى كلمات التسلية بطريقة كانت تنسيه الهموم . كان معظمها سخرية من الموت . وبعضها نكتا تنتزع الضحكات من القلوب المجروحة . وكانوا يبذلون له الشراب على نفقتهم عدة ليالٍ . ثم يركب أى قطار الضاحية سكران رزينا محتقن الوجه وبين شففيه سيجارة ويفتح الباب الخارجى بالمفتاح الخصوصى ثم يدخل في الوقت الذى تكون فيه أُمى جالسة إلى نافذة السلامك . منصته إلى حديث الريخ والشجر . وكفها متكورة تحت خدها . والدمع متجمع بين الكف والخذ . وإهاب وجهها ملتهب قليلا ...
وتخف أُمى لملاقاته فلا تأخذ منه إلا الملامة .

لم يكن يقدر معنى الحزن والوحدة إذا اجتمعا .. ولا سكون الليل من مناغة الأطفال في البيت المعتكف الذى لا تدخله إلا أقدام أصحابه . وكثيرا ما كان سكره يهزه فيكلفها أن تبذل له حنانا زوجيا . وتلك مهمة شاقة سمعت النساء يتحدثن عنها بضجر من يجبرونه على الضحك وهم يجلدونه بالسوط .

ونحن لا ندعو ولا نبتهل ولا ننذر النور إلا في الأزمات . نطلب المعونة ونعد بدفع الثمن . حتى إذا ما أخذنا السلعة نسينا « الكمبيالة » .

لكن عندما تتجدد الحاجة يجد الطيبون والرقعاء على السواء في نفوسهم حرجا من طلب المعونة مرة أخرى . وما دام الذي نطلب منه واحدا لا ثاني له فإننا نتجه إليه حتى ولو كنا مدينين !!

حين بلغت السادسة من عمرى كانت (بدرية) أختى فى الثالثة من عمرها . وفى صيف سنة من السنين خررت صريعا تحت حمى التيفود . ولما كان أبى قد ربانى على طريقة غرس الورد فى الحديقة كنت رفيق الحال . حتى إن الطبيب رآنى يومئذ غير أهل لخوض هذه المعركة . وقال متظرفا ليخفف الآلام عن قلب الأبوين :

— لماذا لم يختَر هذا الصبى اللطيف مرضا يتناسب مع صحته ؟ مسكين .. (واستدرك) لكن ... لا بأس .. وإن كانت عربات الأطفال لا تشحن عادة ببالات القطن المحلوج ...

ولم يكن الطب يبذل معونة إنجائية للذين يصابون بهذا المرض فى ذلك الحين . ولذلك فإن المصاب به كان يجتاز التجربة بإمكانياته الشخصية فحسب .

ولم يطق أى أن يرى هذه الحال ولا أن يسمع هذين المحمومين . كان هذان السكارى أخف وقعا على قلبه بل كان هو العامل الذى ينسيه المتاعب . ونشب الخلاف بينه وبين أمى وسهرا ليلة يذكران ما فات . وأطل عليهما الماضى المشوه من نافذة الليل البهيم . ولم يستطع أحدهما أن يبيث الآخر مخاوف نفسه وإن بدت فى العينين . فظللتهما الصمت . والصبى فى الفراش بطنه منفوخ ، ورأسه فى وهج . ونظرت أمى إلى أبى ولمعت عيناها فجأة وبشراسة قوية ثم قالت له :

— ابقى في مكانك أنت أيها الكذاب ... لا تأت معي ... حذار ...
ابق إلى جوار الصبي وسأذهب إليه وحدي ... لا تأت حتى لا يقفل
الباب ...

وتركته وخرجت كأنها ستترك قطارا . وظن أني أنها أصيبت
بلوثة ، فتنهها عن بعد . حتى رآها في الحجرة الأخرى راكعة على البلاط
العارى بركتين تزحزح عنهما الثوب ورأسها قد سقط عنه المنديل
وحلقها جاف ودمعها جاف . تدعو الله ألا يتلف ما يخصها في ابنها
(فؤاد) من أجل ما يخص زوجها منه ...

— أنا امرأة ... ومسكينة يارب !! امرأة ومسكينة !! (هكلنا
كانت تتهف) .

ودخل عليها أنى وأنهبها من جنوها . وقال لها بغیظ يخالطه رثاء .
وضعف متدنر في قوة :

— أنت كافرة أيتها السيدة ... هل تظنين أنه نصير الصالحين
وحدهم ؟! .. قومي من على البلاط .. لمي شعر رأسك المنفوش .. إن
العاصي إذا طرق بابه مرة بعد مرة فإنه يفتح له ... (وسكت ثم
أردف) : تذلل العصاة أعذب في سمع الله من بكاء النساء !! (ثم
صرخ) : هلمى ... اذهبي إلى ولدك ...

وفي صباح اليوم الذي أعلن فيه الطبيب زوال الخطر عنى خرت
(بدرية) محمومة في مسائه . وفي هذه المرة بدت أمي أكثر رباطة
جأش .

أو لعلها كانت مذهولة . أما أنى فقد أفلت منه الزمام وانخرط ييكى
بشكل مرعب . إن بكاء الأقوياء مخيف كما لو سمعت أسدا يعوى عواء

القط . وأخذ يعدو في الشقة كأنه ملسوع ، حتى استقر به الدوران في حجرة أخرى . نفس الحجرة التي ركعت فيها المرأة المغلوبة . دخلها الرجل القوى وجثا على ركبتيه . وحاول أن يقول شيئا فلم يجد . فنهض وعيناه مبتلتان بالدمع وفمه جاف من الريق .

وعادت الهياكل الصغيرة تظهر لهما في الأحلام . ورأى في عيني « بكر افندى » صديق الحانة نظرة رثاء له فود لو أنه تهكم .

على أن هذا الذي حدث لم يجعله يبر بوعده كأن المصائب تصبرنا على المصائب . والجرح في اليد قد يضجر وقد نحتمله في اليد والرجل .

و كنت في دور النقاهاة في مثل صفرة عود القمح وقت الحصاد . ليس في وجهي إلا البوز والعينان . أجلس تحت شجرة الجواقة في الحديقة الصغيرة أمام البيت أداعب الكلب وأنظر إلى السحاب وأفرك عيني لأرى الأشياء من حين إلى حين . أما (بدرية) فكانت في الداخل . وكانت بطبعها رعاء « شعونة » حادة الصوت عالية الصراخ لا تفتقر عن وصف الأشباح التي تراها . وتقوم بنفسها لمطاردتها في الليل فتمسك أُمى بثيابها وهي تبكي .

واشتد لي السعال ذات ليلة و (بدرية) لا تزال مريضة فجن جنون أُمى . وأحست كأن خطرا داهما يتسلل علينا من الباب فسهرت تبكي . ولما عاد أُمى في الليل بعد منتصفه وقعت بينهما الواقعة . قالت أُمى : — لن أعيش معك ... خذ ولدك إلى المستشفى لأرحل أنا .. سأجلس على قارعة الطريق وأتسول .. إن الشحاذ الذي هناك أسعد حالا منى ...

فيرد عليها بشرود السكارى وهلواء الأقوياء :

— ماذا أصابك أيها الحمقاء .. هل يغيب العقل دفعة واحدة هكذا!
ويتمدد على كتبة قريبة من السرير ويضع رجلا على رجل ويبدو وركه
الأبيض . ثم ينظر إلى المصباح المتدل من السقف بعين لا تطرف . وتقول
أمى :

— لقد أقلقنا الله في سمائه بطلب الأولاد ... فلما جاءوا ...
— هربنا منهم ؟! .. ألسنا نعيش معا حتى الآن تحت سقف واحد ؟!
— إنك تكذب على الله ...
— أنت تلوثين عظمته بأحكامك التافهة . إنه غير غضبان ... أنت
وحك الغاضبة .. أتظننني يحكم على الناس بهذه الطريقة ؟ .. مصيبة !!
وجعل يهز ساقه المعلقة على ركبته وهو مستلق على ظهره . ويردد بين
الفينة والفينة على هفات النسيم وهزيز الشجر قوله باستمرار :
— أنتم لا تعرفون عظمته ... لا تعرفون !! ...
وأخيرا ضجرت أمى . فأقبلت عليه في غيظ لا يعرف الاحترام ثم
صرخت في وجهه :

— إن فسقك أيها الكذاب هو الذى ابتلى هذا البيت بكل هذه
المصائب . تب يتب الله عليك ...

وخرجت تجرى إلى حجرة أخرى . وظل على ظهره كما كان محملا إلى
السقف . وخيل إليه أن المصباح قد استحال قمرا وأن النجوم فرت من
السماء . ثم أخذ يهمس وكأنه يحلم :

— شمتنى .. لقد طال لسانها في الأيام الأخيرة حتى كأنه تمدد !!
شمتنى ... من المحتمل أن تضربنى في العام القادم ... غدا نناقش
القضية .

ثم أوى إلى فراشه في صمت لا ينبس .
وفي الصباح خرج دون أن يتكلم وجلس على المائدة يأكل بعنف
ويدفع الأطباق ويكسر الخبز بقوة من يكسر شيئا غير لين . وبكت أمي
طول النهار . إنها أول مرة تشتم فيها أئى . لكنها كانت أسيرة أحلامها
دائما . وإذا رأت مناما في الليل ترقبت وقوعه في النهار .
قبل موت أبيها رأت برج الحمام في دارهم يسقط كأن شيئا اقتلعه من
أساسه . ورأت الحمام يطير في كل صوب . فمات الرجل وتفرق بعده
الأبناء وانقسمت النار إلى عدة دور ...
وقبل زواجها رأت أن في يدها فردق مقص وكأنها تركب واحدة على
الأخرى وأدى المقص وظيفته فقرحت . وهكذا .
ومنذ ليلتين اثنتين رأت أن عينها رمداء وأنها تحس ألما وأنها تشد عليها
عصاة غير نظيفة . فلما جلست تتأوه سمعت هاتفا يقول لها من حيث
لا تراه :

— نظلفى العصاة تسلم العين . إن مندليك ملوث !!
ومن يكون المنديل إلا زوجها ؟! ومن تكون العين إلا الأبناء !
آه ... ليته يتوب عن السكر والحب أو واحد منهما أو هما معا ... إن له
قلبا لا يشيخ أبدا دائما الخضره مثل أشجار الكافور . لقد غضب منها .
خرج لا يتكلم . وعندما يعود فلن يعود معه مرجه . وسيضع قرطاس
الفاكهة في صمت جائر ويدخل ليخلع ملبسه .
وقد حدث كل هذا . وأكلا بلا كلام . وعند دخول المساء ركب
القطار إلى العاصمة فجلست وحدها تبكى .

* * *

وكان الركن محجوزا في الخمارة ككل مساء والأصدقاء يتلفتون كأنهم يبحثون عن البقية . وأحد السكرارى يداعب بائعة يانصيب . وصبي خادم يكسر ثلجا في إناء . وارتفع صوت « بكر افندى » عاليا جهوريا يقول عندما لاح شبح أى من المدخل :

— ها ... لقد حضر ... أتقى الفاسقين .

وابتسمت عدة أفواه أمامها كؤوس ، بعضها فارغ وبعضها مليان . وزحف أى بكرسية فأكمل الدائرة ثم اتصل الحديث الذى كان قد انقطع ، فقال من كان يتكلم :

— ... وهكنا تاب ذلك السكر !!

قال أى وهو يتنسم :

— تتكلمون عن توبة سكير ؟!

فقال ثالث :

— نعم . عن الخرافة التى تروى في كل خمارة .

فقال « بكر افندى » :

— كل شئ جائز .

فاندفع أى يقول لهم :

— فى نيتى أيضا أن أختم ليالى معكم بهذه السكر . سأتوب .

فقهقه واحد في الركن حتى كاد يتقيأ . وجأر « بكر افندى » بأهة شديدة وقال بعدها : « أنا عارف السبب » . على حين انطوى أحدهم في جلسته كأنه شئ لين حتى أراح ذقنه على صدره ثم أخذ يهز رأسه في تفكير .

وصمت أى حتى تسكت الضجة لكن الرجل المطرق همس قائلا بوقار :

— ها كم شيئا جديدا ... (ثم أشار إلى أبى قائلا) : هذا خروف من خراف الله يغود إلى حظيرة الله !!

فارتفع الضجيج مرة أخرى . وغلب الضحك على الكلام . وسكت أبى لا يتكلم . وطلب له أحدهم كأسا . ثم جأر « بكر افندى » يقول :

— أنا عارف السبب .. هو حكاية الخدأة والكتاكيت ... ها .. ها . لكن ما العلاقة بين الشيئين أيها الإخوان ؟

فقال أحدهم وقد غلبه الحماس :

— وهل هذا عيب يا مغفل .. حاول أن تجد سببا معقولا لأى شىء ... وعندئذ ستفعله ببساطة ...

فانبعثت أصوات مستفهمة :

— مثلا ...

فأجابهم بسخرية :

— مثلا ؟! ... ها ... هذه الحالة التى نحن فيها . مجيئنا إلى الحمامة ... لو لم يكن سبب مجيئنا إلى هنا معقولا جدا ما سعينا على أظلافنا . ليكون معقولا عندنا وحدنا !! ليكون !! ... اقنع نفسك بالعكس نجده معقولا أيضا ، وعند ذلك ستظل فى بيتك لا تخرج منه .

قال أحدهم :

— كلام فارغ .

— الفارغ على وجه الأرض عقلك وجيبك . أنت غيبى مفلس .

اسمع : العقيدة يا بنى لا تقاوم . وقد يصعب عليك زرعها لكن اقتلاعها أصعب .

قال « بكر افندى » معلقا بخشونة :

- يعنى من الممكن أيها الفيلسوف أن تكون توبة السكير سببا في نجاة أولاده من الموت ؟ أفدنا أفادك الله !
- فسكت الفيلسوف ريثما يفكر . وصب كأسا لأبى على نفقته ثم استرخى في قعدته كأنه وسادة مثنية . ثم سأل :
- لماذا يقبل الله دعوة المومس واللص والسكران ؟ لماذا ؟!
- وهل هذا سؤال ؟ سميع مجيب .
- باستمرار ؟
- فأجاب « بكر افندى » بإصرار :
- نعم باستمرار . ولماذا لا ؟!
- لأنه يسمع كل دعاء ولا يجيب كل دعاء .
- وافقنا ! إذن فلماذا يقبل دعوة المومس واللص والسكران ؟
- إنه يربت على أكتافهم كما تربت على كف ابنك العاق . حتى إذا لم يقومه التريت قومته باللكمة .
- هاهاها... سكران والله العظيم . طيب . وإذا كنت تجدل أعمال الناس أسبابا معقولة فلماذا لا تحاول أن تجدل استقامتك سببا معقولا فتتوب ؟
- السبب موجود . لكنه كالألة الخطرة لا أستطيع استعمالها .
- هيه
- هل يؤلمكم أن ننقص واحدا . دعوا الرجل لحاله فإنه ينشد لقلبه العثمائية . تحاولون أن تقتلوا مخاوفكم فتقتلوا معها أنفسكم .
- فقال أبى :
- كحكاية إحراق القمح لتطير عنه العصافير .

— تمام . كأساً أخرى من كؤوس الوداع يا صديقي ... اسمع .. أنا
شخصياً أحس بالفرح كلما نقص قطيعنا واحداً ، لأنه من الجائز أن
يلحقني الدور .

فسأل « بكر افندى » في شبه حزن :

— ولا يكون هناك خمر ولا سكيرون ... مستحيل !!
فرنت في جوانب المكان ضحكة إجماعية لكنها قصيرة ما لبثت أن
تلاشت كما تلاشي الموجة . وأعقبها صمت طرزت حواشيه النظرات
وزفير التدخين ووقع كعوب الكئوس على رخام المناضد . كان أشبه
ما يكون بالأسى . فهل نأسى على مخازينا وعيوبنا وأمراضنا إذا حلولنا أن
نشتبك معها في معركة حاسمة ؟!

ثم نسي الموضوع الشخصي . موضوع ألى . وانخرطت الجماعة في
توديع حار لم يقطعه كلام كثير . كان عملاً خالصاً صرفاً . كان شرباً
مستمراً أحال فيلسوفهم العظيم إلى مخمور عظيم ، فانطوى على الكرسي كما
تنثنى الوسادة ، واضعاً ساقاً على ساق وشرع يدندن بأغنية من أيام شبابه
كانت تغنيها الحبيبة في أحضانه . وأين هي الآن ؟ قال :

— إنها هيكل عظمي يحتضنها هيكل عظمي آخر .

فجاء صوت يقول :

— هيكلك يا أستاذ ؟ ها .. ها .. ها ..

— عسى أن تكون أبواب السماء مفتوحة هذا المساء لدعاء
السكرارى ...

وسأل ألى :

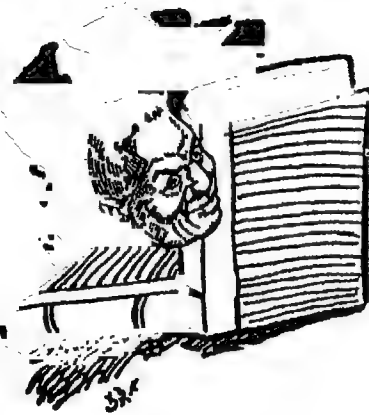
— هل تذكر التاريخ الذى طلبت فيه من الله فاستجاب لك ؟

فأجابه :

— هو تاريخ ميلاد ابني . وقد مضى منذ شهر .
— آه ... إذن ... على أن أنتظر أحد عشر شهرا أخرى . ليتنا
لا ننسى . لكن ...

ثم سكت كأنه نام !!

وفي أخريات الليل عانق السكاري رجلا يودعونه . وبكى بعضهم :
هل رأيت سكران ييكي ؟ .. وانصرف ألى لا ينظر إلى الوراق كأنه
يخشى أن تجبره وجوههم على عودة قرية . وعندما عبر عتبة الخماره سمع
صوت « بكر افندى » الجهورى الغليظ يصيح بأعلى ما فيه :
— خروف من خراف الله عاد إلى حظيرة الله ...
وتخللت هذه الكلمات ضحكات كثيرة .



٢

وفي الحجرة العلوية المطلة على فضاء الحديقة ، الوحيدة على السطح كانت حركة إصلاح وترميم قائمة على قدم وساق . ثم جددت دورة المياه القريبة منها . ومن نافذتها الشمالية بلدت للعين مشاهد ساحرة . الجبل والشجر وطريق المرصد وشريط السكة الحديد .

وعندما يسكن الليل تهفّف أرواح ملائكية على مقربة منها . وكان أبى يراها وحده . يراها بقلبه وجنانه وينادىها بلسانه ويمد إليها كفين تبذلوان صغيرتين ككفوف الأطفال بالنسبة للقوة التي يستجدها أبى .

كان أبى مستميتا في توبته . وفرحت بذلك أمى وإن ظل مخلصا لها لأنها هي التي حالت بينه وبين الخمر . كان ناقما نقمة اللص على القمر لأنه يريد الظلام : وكان يؤمن بالفعل ورد الفعل ، لذلك أخذ يجهز للتوبة أدوات كما تُحشد اللعب للطفل حتى لا يبكي في غيبة أمه .

وفي خزانة خشبية في الحجرة العليا وضع أورادا وكتب تصوف وسجادة وسبحة . وأخذ يتردد على الأضرحة ويستمع إلى المواعظ

ويسأل عن الفرق بين السنة والواجب . وبدا عليلا متضعضا مسكينا
وحدثتني أمي أنه كان يبكي في وحدته .
كان مشتبكا مع نفسه في عراك غير متكافئ ، يريد أن ينقى دمه من
الكحول وأن يفصل نفسه عن ذكريات أعوام طويلة . وأن يعتاد شيئا
فشيئا على أن « يرى الليل وهو وحيد » كما كان يقول . ولما سأله بعض
الناس عن معنى ذلك أكد أن ذلك شيء لا يحسه إلا الذين جربوه
فحسب ، فالمرضى والسكير والعاشق يصعب جدا عليهم أن يقابلوا الليل
وجها لوجه دون أن يكون معهم أحد .
لذلك فإن تسيحاته كثيرا ما كانت ترتفع بطريقة هستيرية ويظل في
الحجرة العليا يفعل ذلك حتى يهبط في أخريات الليل . كان كالذي يدفع
الخواف بالغناء على الطريق الموحش . وكثيرا ما كان يلحن الماضي لا لأن
الحاضر أصبح حلوا نقيبا صفييا ، بل لأن الماضي القوي لا يزال مسيطرا
على حاضره لا يريد أن يترك زمامه .
وفي هذه الأثناء كنا نشب ونترعرع أنا (وبدرية) . واتصلت رعايتنا
بأمننا أكثر وأكثر حتى تخيلت أن أبي غائب أو أنه غريب .
وكثير تردده على الأطباء واستحال وجهه الوردي إلى شيء أشبه بلون
المنزوفين . وحادث طبيعته عن « المتوسط » فكانت أمي لا تراه
إلا مستسلما أو جاعحا .
وفي إحدى الليالي بكت له أمي بدموع غزيرة :
— لا أحب أن أراك هكذا !! .. إن صحتك تسوء . كنت تريد أن
يعيش ابنك ولو جمعت له قشر البطيخ من الحارة ... وأنا كذلك بالنسبة
إليك ... أنت ...

ثم قطعت كلامها وانخرطت في البكاء . فقال أنى وكأنه يحلم :
— تريدن أن أعود إلى سيرقى الأولى ؟ ... هيه ... أنا أشعر كأن
القوة تنسحب من جسمى كما تنسحب الجيوش في الظلام ... إربات
وأصبح فأرى موقعا خربا ...

وأطرق وأشعل سيجارة . وكانت ذقنه طويلة ، وهندامه غير
معتدل ، والسبحة أمامه على المنضدة القريبة . وظلت أُمى تستمع لكنه
أخذ يدخن في صمت دون أن يتكلم . وعندما دخلت عليهما أحسست
أن في جوها شيئا غريبا حين نظرا إلى في وقت واحد . والنقت نظراتهما
من فوق فصرت كأنى تحت غصنين متشابكين ثم مالبت أنى أن قال :
— كل هذا من أجلكم ... نعم .. لكن ... منذ أربعة أشهر أو تزيد
وأنا أبحث عن العلاقة بين الشيئين — كما قال « بكر
افندى » — فلا أجدها . ما العلاقة بين الخمارة والحدأة والكتاكيت ؟ و ...
فقاطعت أُمى مشفقة عليه قائلة بانكسار من يجبر على اتخاذ قرار :

— ليس هناك علاقة ... أبدا .

— نجامليننى ؟ (وتتهدد) .

فأحست أُمى كأنها أمام طفل . فقد كانت شخصيته مطمورة تحت
ركام من الأنقاض لا يعرف جنسها . فعادت تقسم أنها تقول الحقيقة وأنها
تقتديه بنفسها وبنا أيضا إذا لزم الأمر . ثم قالت :

— المسألة مسألتك الشخصية . لا تعذب نفسك !

وبات ليته فوق . في الحجر العليا . لم يشأ أن ينزل . كان يريد أن يختل
بأفكاره . على أن الأرق كاد يجننه : ولم تخفف الأوراد ولا كتب التصوف
ولا سير الصالحين من حلة الصداق الذى يصاحبه .

وكان يتسلل في بعض الليالى إذا كان في المدينة ، فيمر على الخمارة في تلصص ذليل ومن وراء الزجاج المقل في الليل البارد يلقي نظرة شاحبة على الركن . وقد تصل إليه قهقهات « بكر افندى » الطويل العملاق الجمهورى الصوت . ثم ينسحب في رفق ذليل أيضا قاصدا إلى محطة القطار حيث يركب إلى (حلوان) وتهاوى على رأسه المنخوب عدة خيالات : فيها رجل يعبر باب الخمارة بعد غيبة ستة شهور هزيلا نحىلا مريضا فيهلل في وجهه الندماء ويصفقون ويسقونه كأس التحية كما سقوه كأس الوداع . وبعد فترة يبدأون في التنكيت عليه والمناوشات معه ، وينثنى الفيلسوف النحيف كالوسادة ليضع للقضية « فقها » جديدا ... فيقول شيئا ما !

وفي خيالاته أيضا حداة وكتاكت وأطفال يمرضون . وقوة خفية عملاقة أصلها في الأرض ورأسها في السماء تتربص به إن عاد إلى الخمارة لتسقط عليه « بصقة » واحدة فيصاب بارتجاج المخ . ويغيب عن الوجود . ثم ذكر كتب الأوراد والأدعية ...

ثم تحلب ريقه حين ذكر النبيذ . وعشوة أول كل شهر على المنضدة بين الإخوان . والسيجارة تحترق وحدها وهو يقص « حلوتة » . والخزعبلات اللذيذة التى تصنع إطارا أجمل من الصورة والتى هى قوام كل الملذات ...

وتوقف على ناصية مظلمة بالقرب من « المزلقان » والجرس المتواصل الدقات ينبه المارين لخطر القطارات . وسور إحدى الوزارات تتر من ورائه الأشجار . ومحطة (حلوان) قريبة منه . وكان يسأل نفسه :

— هل أعود؟! إنهم أوحشوني!! لماذا لا أدخل فأسلم... وأراهم وأخرج. أو أجلس فأخذ فنجالا من القهوة. أوحشوني! آه... إن المبادئ تكلفنا كثيرا. هل المسألة مسألة مبدأ أم هي بر بوعد ووفاء بنذر؟ لا أدري!

ثم يتحرك... نحو المحطة. عائدا أدراجه فيدخل حلوان النائمة. وتكون أمى نائمة أيضا فيستلقي في الفراش في صمت، ويشعل سيجارة وهو راقد وتتوهج قمته في الظلام. وقد يوقظ دخانها نوم أمى... وينفخ وينفخ، ثم يطفئها ويستسلم للأفكار.

* * *

على أن أمى كانت تحب الفريقين. كانت كمن أجبرته الظروف على أن يختار بين جارحتين من جوارحه فظل ممسكا عن النطق لا يستطيع أن يفاضل بين السمع والعين. وعلى الظروف التي أجبرته، أن تحكم هي بالنيابة عنه. فليعد أى إلى معاصيه وليكن ما يكون، فقد أصبحت مغلوبة.

وفي إحدى الليالي غاب في الخارج. وظلت أمى ساهرة في فراشها. وكانت تخرج بين الحين والحين إلى غرفة أخرى لتلقى نظرة على أنا و (بدرية) فإذا بنا نتنفس في هدوء فتعود في صمت. وصفر القطار الأخير قبل دخوله المحطة فنفض صغيره إلى قلبها كأنه الخراز. إن لم يعد في هذا القطار فإن مكروها يكون قد نزل به. يا ويحها!.. إنها كحارس الكنز يحس الديب اللص مع كل نائمة. حتى سمعت بابا يصر. وعادت إليها الذكرى القديمة. وتوقعت أنه سيدخل عليها ورائحة الخمر تفوح من أنفاسه لكنها سمعته يصعد إلى فوق حيث الحجرة التي اتخذ منها « خلوة »

للعبادة . كان فيها فراش صغير وأدوات كثيرة . ويستطيع أن يتخذ منها مرقدا . وقد فعل . وبات هناك . ولم تستطع أُمى أن تقطع بشيء . لكنه بدا وقت الصباح منهكا أشد شحوبا مما كان ، وإن ظهرت نفسه أكثر قوة . وبدا طوال مدة الافطار في ربكة من يعمل خيرا يريد أن يتخفف منه ثم يخرج إلى عمله .

: وهبط المساء فتسلل وخرج ولم يكن في يده سبحة ولا في جيبه كتاب . وداعبه الكلب عند الباب الخارجى فركله فعوى وعاد فانزوى تحت شجرة الخروع . وكانت أُمى في نافذة السلامك تراه من خلال الأغصان وفي عينيها دموع تحاول أن تغلبها .

وصر الباب — بعد منتصف الليل — وعادت الذكرى القديمة . وتوقعت أُمى أنه سيدخل تسبقه أنفاسه الخمورة . لكنه صعد إلى فوق . وظلت تتقلب ولم تعد تدعو الله !! وبدت المسألة كأنها تستعصى على الحل . ثم فرضت أنه يسهر لكن في غير الخمار . وعند الصباح جلسنا إلى الطعام وكان أبى في خمود واختلال كمن قضى ليلة في المللة يتسم لكل كائن ولكنه نحجلان .

وفجأة وهو يلبس ملاپسه قال لأُمى بطريقة من يريد أن يتخلص من جثة فيرميها في أى مكان . قال لها وهو يتسم :

— لماذا لا تسأليننى عن سبب غيائى كل ليلة ؟!

فلم ترد . وانطبعت على شفيتها ابتسامة عميقة المدلول وفي عينيها عناء وتسليم . فقال وهو يضع الطربوش على رأسه مغطيا به معظم جبينه : — (رجعت « ريمة » لعادتها القديمة) ... (وكأننا با « بدر » لا رحناء ولا جينا ..) .

واندفع نحو الخارج ينهب الصالة بخطوات واسعة وهو يدندن المقطع الأخير ويطوح فى الهواء عصا خيزرانية عوجاء :
 — « لا رحنا ولا جينا ... لا رحنا ولا جينا ... » .
 ثم قص على أمى تفاصيل ما وقع فى ليلة من الليالى التى يعود فيها بوعى لا بأس به .

لو أننا نشعر بالزمن لضقنا بأعمارنا ذرعا ...
 وهذه هى التجربة التى أحسها أبى فقد عاش يحسب الساعات كأنه « منه » . كان يعبر الزمن وهلة بعد وهلة كمن يعد أحجار البناء فى سور طويل لا ينتهى أبدا . وكان يشعر بالدوخة وبالأسى . ويخيل إلى أن كل ذلك لسبب مجهول . والسبب الحقيقى واضح لكنه يتكرر . كان يضع على وجهه قناعا ليكون الأسى أنكى وأبقى .
 وفتقه أبى وهو يلمس هذه الحقيقة . ثم قال :
 — هكذا ندفن أجبابنا ونبيت ونصبح فيخيل إلينا أننا لم نرهم منذ أجيال ... ها ... هذا لأننا نعيش بعدهم فى كل وهلة ... آه ... نعد أحجار البناء فى السور الطويل ... الطويل ... الذى لا ينتهى أبدا !!
 ثم أحس كأنه لا ينتظر شيئا . وما معنى ذلك ؟! ... لا بد لنا أن ننتظر شيئا ما فى حياتنا وإلا استحالنا إلى فراغ قاتل . والذين ينتظرون دورهم فى صف القتلى خير من الذين لا ينتظرون شيئا أبدا . آه ... ومنذ ترك أبى الخمر شعر كأنه لا ينتظر شيئا فضايق بالحياة .
 يحس النوم فى الساعات التى تتوهج فيها يقظة الناس . وفى الليل والناس هاجعون — يؤرقه الصداق والتفكير .

وكانت ليلة ندية . ونسمات الخريف تتنفس في جو المدينة تنفسا
لا مثيل له . وأنى في قطار (حلوان) يضرب أحماسا في أسداس ويحاول
أن يجد لموقفه تفسيرا منطقيا .
ثم ابتسم لنفسه :

— لا داعي للتفسير المنطقي أبدا . إن المنطق يتلف الأشياء .. لماذا
وضعه ١٩؟ وإلى أن يثبت أن هناك علاقة بين الكأس والحدأة والكتاكيت
فسأظل أشرب ... طيب . لماذا لا يموت أولاد « بكر افندى » ؟
ثم ولج أبى باب الحانة وبدا على باب العتبة ...
وارتفع صوت جهورى غليظ عال يقول :
— الحقوا ... ها قد عاد إلينا أتقى الفاسقين !!

وكان المتكلم هو « بكر افندى » . ولم تفتح الأفواه دفعة واحدة لأن
شيئا من الذهول خيم على أصحابها وانثنى الفيلسوف النحيف كأنه وسادة
حين وضع رجليه على الكرسي وشبك حولهما ذراعيه وبدأ يقول بصوت
كأنه صادر من عالم بعيد :

— هذا خروف من خراف الله ...

فردوا كما ترد « المجموعة » :

— فر من حظيرة الله !

وشعر أبى بالخزى ... كالصبي الغاضب المضرب عن العشاء حين
يتقدم بلا دعوة وقد كان أبواه يرجوانه فلا يجيب . ثم شرب كأس التحية
على حساب الفيلسوف . وبدأوا يشعرون أن الدائرة قد كملت فقد كانوا
أشبه شيء بالطوق المفتوح . وجعل أبى يتحدث عن ذكرياته أيام التوبة
وكيف كان شنيعا جدا في العمل وفي البيت . كان لا يفرق بين الذكر

والأنتى وهو يقيد الأسماء في دفتر المواليد وكان لا يحسن أن يخاطب أحدا .
قال الفيلسوف :

— وقد أمرنا الله أن نعامل الناس بالحسنى . ولما كان من
الضرورى ... آ ... من الضرورى ... أن نجد سببا معقولا لكل شيء
نعمله ...

فأكمل أبى :

— فلنعد إلى ما كنا فيه حتى لا تؤذى الناس . ذلك أسهل .
وقال أحدهم :

— على أننا كنا ندعو الله دائما أن تعود إلينا .
وسأل آخر وصوته متلعثم :

— ولماذا يستجيب لدعاء من هذا النوع ولا يستجيب لآخر على
عكسه ؟ (وحلق بعينين حمراوين يبحث بهما عن الإجابة في وجوه
السامعين) .

فنظروا جميعا إلى الفيلسوف الهادئ بالقرب من الركن حتى أجاب في
ابتناسام :

— لو توفر لديه سبب معقول لاستجابة العكس لفعل ... المسألة من
أولها إلى آخرها تنحصر في توفر السبب ...
فضجوا بالضحك وسأله أبى :

— وما رأيك من جديد في قضية الخدأة والكتاكيت . هل هناك
علاقة بينها وبين ما نفعله الآن ؟
وكان على وجهه خوف يريد أن يخفيه أدر كته قلوب الجماعة وإن لم تره
عيونهم .

فقال أحدهم وهو يصب له خمرًا :
— هل لا تزال خائفًا؟! ... اشرب ... أطعمهم كي ينعم « بكر
افندي » مواشيهِ وعندئذ يصبّحون مثلهم . هل تعلم ما حدث لهم؟!
— لا .
— لقد رأيت أمهم أحدهم ممسكًا بحذأة وكان يقطع من رأسها وهي
حية !
ها ... ها ... ها ...



٤

بينما كانت هذه الفترة من حياة أوى تنضم إلى ماضيه ليلة في إثر ليلة كان الرمن يتمخض عن حادث غريب بالنسبة لأولاده . حادث لم يكن لهم على بال .

فقد أعلنت أوى ذات مساء أنها حامل ...

وقهقه الرجل قهقهة المفلس حتى تمتلئ خزانته بالمال . لكنه كف فجأة حين تذكر أن مستوى المعيشة آخذ في الانخفاض بالنسبة للأسرة . الأفواه تتكاثر والدخل ثابت لا يزيد . ومطالبه الشخصية تنمو يوما بعد يوم . وإذا اشتبكت معه أوى في عراك وحاد عنها عادت إليه ذليلة . شخصيتها ذائبة في شخصيته ذوبانا شديدا .

حقيقة إننا نملك البيت الذى نسكن فيه . لكن ذلك لا يكفى . فأنى مرتبه ضئيل وأوى لا دخل لها . وحياتها الاقتصادية قائمة على الستر خالية من الاحتياط . فإذا وقعت في البيت مفاجأة ما على غير انتظار . كانت أوى تلجأ إلى حلالها الذهبية فتودع إحداها في بنوك الرهون ثم تستردها بعد مدة .

وفي الوقت الذى بلغت فيه سن التاسعة وكانت (بدرية) فى السادسة ، ولدت أمى طفلة سمتها (سميرة) .

كان ذلك يوم جمعة . استيقظت من النوم فسمعت بكاء صغير يخرج من حجرة أمى . ورأيت بعينى شبه ما كان أبى يعملهُ أيام ولدت أنا . رأيتهُ يتراقص من الفرع كما تتراقص كرة الكلو تش بين الكف والأرض . خصوصاً عندما لمح جمال وجهه على وجهها الصغير . كان فى الأصل مغربياً صافى اللون . وحين يبلو صحيحاً يخيل إليك أن ماء العنب يترقق خلف بشرته . وأمى مصرية صفراء فى لون حبة القمح . ومن تزاوجهما كانت وسامتى ووسامة أنختى (سميرة) .

أما (بدرية) فقد نزعَتْ فى وراثتها إلى أصل بعيد . فلم تكن العين قادرة على أن تلتقط وجه شبه بينها وبيننا . ترائية معفرة . (شعنونة) كثيرة الصراخ . تبدو الخلة فى عينيها كأنها تتربص لشيء .

وحين ذهب أبى إلى الخمارة مساء ميلاد (سميرة) ضحكوا وصفقوا لسماع الخبر وفقدوا وعيهم على حسابه . وأعلن أبى فى منتصف السهرة أنه سيعاود التوبة .

فقال « بكر افندى » :

— ها ... سيدخل خروف الله مرة أخرى إلى حظيرة الله . لكن ... هل وجدت لذلك سبباً أكثر معقولة من التصوف ؟!

فانطوى الفيلسوف على كرسيه كما تنطوى الوسادة وبدأ يجيب بالنيابة عن أبى ، وعن كل شخص :

— يظهر أن للمسألة وجهاً آخر ...

— هيه ...

— لا يكفي أن تجد سببا معقولا وتقنع به ... يجب أن يقهرك السبب
فذلك أضمن لك .

— مثلا ؟ ...

— مثلا ؟! ... لنفرض أنك أردت أن تشنق نفسك فماذا تعمل ؟
تضع الحنية في رقبتك الكريمة أولا وأنت واقف على الكرسي . لأنك تريد
أن تتخلص من الحياة التي لا تطيقها . مفهوم ؟
— مفهوم .

— حسن . تضرب الكرسي برجلك ليتعلق جسمك في الهواء .
تحس — وقانا الله السوء — بكبسة الموت على أنفاسك وعندئذ تأخذ
رجلاك في البحث عن الكرسي الذي دفعته منذ وهلة . فلو فرضنا أنها
حصلت عليه ، إذن لوقفت عليه من جديد . وعندئذ تنسى أن السبب
معقول . لكن الكرسي بعيد . فيصبح السبب « المعقول » « معقولا
وقاهرا » في وقت واحد . لذلك ... عليك رحمة الله !!
ها . ها . ها .

وظلت الحجرة العليا مقفلة إلا فيما ندر . وبيت تجاهها حظيرة
للأرانب . وكمنت كتب التوبة في الخزانة الخشبية وبعثت أختى حبات
السبحة ذات يوم . وبعث بعض الفيران بخيوط المصلى . وواظب أبى على
برنامجهم وواظبنا ثلاثتنا على النوم . وانطبت هذه الفترة من حياة أسرنا
بطابع عادى فلم تقع فيها أحداث جسام ، فغدت أيامها في أنظارنا أشبه
بوجوه المارة في الشارع المرحوم . وجوه عادية خالية من كل ما يثير .
لذلك أحسست ذات يوم — وكأنما حدث ذلك فجأة فأيقظنى من
النوم — أن أبى ينادينى وهو راقد على الكتبة ظهره إليها ووجهه إلى

السقف وقد ركب ساقا على ساق . ناداني وقال لي وكأنه يفكر في معنى ما يقول :

— فؤاد ... فؤاد !!

— نعم يا بابا .

— هل تدرى يا بنى . هل تدرى ١٩

فهاززت رأسي مستفهما . فاستطرد :

— هل تدرى أنك اليوم ابن سبعة عشر عاما ... ياه ... كيف مرت

هذه الأيام ١٩ يا سلام !!

ولم أجد جوابا ولا تعليقا . فجلست على كرسي قريب ووجهي إلى الحديقة أسمع نباح الكلب وأرى ترغ الأغصان . وفي رائحة الجو آثار من تنفس النبات النادى . وعادت ملائح أبى إلى سكون ليس له قرار لا يعلم ماذا في داخله . سكون حملني على أن أسأل نفسي : وهل يعتبر بلوغى سبعة عشر عاما من المسائل الضخمة . ثم همست : وماذا في هذا ؟ إن (بدرية) اليوم بنت أربعة عشر عاما و (سميرة) في التاسعة . فلماذا لا يقول لهم مثل هذا الكلام ١٩

ودخلت أسمى فأخرجت من أفكاره . وكان المساء قد دخل . وعلى وجه أبى علامات قلق شأن كل من يتناول شيئا في موعد منتظم . وحسبته مهموما فسألته عما يعاينه . خصوصا لأن أحاديث التوبة كانت قد عادت إلى الظهور في خلواتهما من جديد . وكانت أسمى لا تعلق على الأحاديث لأنها في الحقيقة كانت يائسة . وإن أدركت بقلق وغم أن مطالب البيت آخذة في التزايد وأن شرابه قد أصبح حراما مرتين . لكن الهجوم على أبى لم يكن شيئا سهلا .

جلست أمى على حافة الفراش وفي يدها جورب تلفق كعبه وطأطأت رأسها تعمل في صمت وبدا وجهها الوسيم طويلا أكثر من العادة . وكانت عين أنى تنظر إليها . وصوت الأختين في الحديقة يهب مع نسيم الليل . تضحكان في مرح وخلقو بال جعل أنى يمصمص بشفتيه ويهزور كه المعلق .

وغرزت أمى الإبرة في الجورب ورفعت بصرها إليه وهى تبسم :

— فيم تفكر يا بو فؤاد ؟

فقال بكمد :

— فى الأولاد !!

— مرة أخرى ؟! ... كنا قد نسينا الموضوع !!

فاستطرد بكمد أشد :

— كنت منذ وهلة قبل أن تدخلى على ... أقول لفؤاد : إنه قد بلغ

السابعة عشرة .

— من عمره الطويل ...

— آه ... وهناك بنتان تلعبان فى الحديقة . لقد تغيرت الأحوال

يا سيدنى (وضحك) إن كثر الطعام قلت الأفواه ، وتكثر الأفواه إن قل

الطعام !! ... حكيم ... قرش أو كرش !!

وجعل يهزور كه المعلق ويمصمص ويغوقل . وأمى تعمل الإبرة فى

الجورب فى حياد امرأة تلمس القضية من بعيد حتى لا يدركها الأذى .

وصرخت (سميرة) فأطلت أمى من الشباك فإذا (بيدرية) قد

لطمتها فأدمت أسنانها . وبكت الصغيرة فى حرقة ودلال ودعت أمى على

بنتها الكبيرة بقصر العمر . ثم عادت إلى حيث كانت تجلس ودخلت علينا

الصغيرة وظلت الثانية في الخارج . وكان أنى لا يزال مستلقيا وعيناه في السقف كأنما يقرأ شيئا فانفرجت شفتاه عن ابتسامة وعاد يقول في ثقة وتقدير .

— لا يجب أن نقلق على مصايرنا . هل كنا نعلم أيام كنا نبكى على الوفاة وسقوط الجنين أن في أصلابنا وأرحامنا مصائب سيعرض بعضها بعضا تحت أشجار الحديقة !؟

وانفتح ضاحكا . ثم استوى جالسا على الكنبه وصفق بكفيه :
— حكمم والله العظيم !! .. وكنا أيامها ننذر ننورا شتى : أن نجتمع لهم قشر البطيخ من الحارة وأن نجعلهم يستحمون بماء المطر . وأن نريهم كالمواشي . لم يكن هناك داع لكل ذلك .
ونظرت أُمى ولم ترد . ووضعت فردة جورب وأخذت فردة أخرى .
قال أنى :

— رقعى يا سيدتى رقعى . ثمرنى حتى لا تنسى !! غدا ستسمع الرقعة حتى تشمل الثوب كله !! رقعى . لقد حملت (سميرة) على كفى ذات يوم وأنا فى السطح أمام حظيرة الأرانب ودعوت حداة كانت تخلق لتخطف أرنبا — أن تتعشى (بسميرة) قلت لها « خدى كتكوتك يا حداية » واستحلفتها بأولادها فلم تستمع إلى . آه ...

ثم ما لبث أن تقلب تقلب القلقين ، وقام فليس وانصرف إلى حيث يبعثر النصف الأول من الليل مع أصحابه ويعود لينتظر الليلة الأخرى .

وأخذ أنى يفكر فى التوبة تفكيرا حقيقيا . كانت لها أسباب أخرى تولد فى نفسه وتشد من عزمه . أسباب حسية لا علاقة لها بالروح . منها أن

قوته الجسمية أخذت في الانحطاط وقوته المالية أخذت في التدهور . وصمتت زوجته عن مفاتحه في الموضوع فلم تتح فرصة لعناده أن يظهر . ومنها — وربما كان ذلك مهما — أن الجو الذي يسهرون فيه أمسى مملا بليدا لا يثير المرح إلا بجهد ، فقد انقطع أحدهم بسبب المرض . وخر الفيلسوف العظيم ذات ليلة صريعا تحت عجلات إحدى العربات وهو يعبر الشارع فحملوه فاقد النطق ولم يفق من السكره . وحاول « بكر افندى » الطويل العملاق الحيوان ذو الصوت الجهورى أن يجلس مكانه وأن يسد ثغرتة فبرهن لهم بطريقة ملموسة أن الجبل على ثقله قد ترجحه (فكرة) . وفقدت أفكار الليل رونقها . وذهب التمرية اللذيذ الذي كان الفيلسوف يعقده حول كل قضية . وشعر المجتمعون في الركن المحجوز كأن مصباحا قد انطفأ وكان الخمر فقدت جزءا من مفعولها ... فجعلوا يفكرون .

وانقطع أى عن الذهاب في صمت كأنه لم يشأ أن يبوح بتجربته إلا بعد النجاح . لكن ذلك كان محالا ، لأن مداراة اللهب والدخان أمر غير معقول . ولم تدم التجربة إلا ريثما أحس من جديد أنه يفقد مع مطلع كل شمس جزءا من قوته . فعاد إلى الخمارة بنفس الصمت الذى انقطع به .

. وجأر « بكر افندى » حين رآه ماثلا على العتبة . وعبر أى فضاء المدخل قاصدا إلى الركن فأحس فجأة بيد تعصر قلبه ، وعللها ليلتذ بأن كل شيء في المكان فقد حماسه وأضاع بهجته وأن « بكر افندى » لم يكن أهلا « لشغل هذا المنصب » فشرب ورجع . ثم رجع وشرب . ثم رجع ولم يعد بعدها أبدا !

كان السبب اجباريا لا أثر للاختيار فيه لأن أمراض الشيخوخة قررت حرمان أى من الشرب . وقد كان جديرا بالألا يطيعها وهو أهل لذلك . لكن الذى كان يحدث هو أنه يشعر بالرغبة فإذا ما استجاب دفع الثمن غاليا من الألم . وفى بعض الأحيان كانت الرغبة والخوف من العواقب يظهران معا فى وقت واحد فتدمع عيناه فى صمت وهو ضاغط جبهته بأصابع كفه حاجبا بريق عينيه عمن يراه .

و كنت إذ ذاك فى الثامنة عشرة أنظر إلى الحوادث فى بيتنا فى رفق محايد وديع هادئ . وأرى أسمى تختل بنفسها فتبكي فى صمت ، وعندما تدخل على أى يعود وجهها فيلبس قناعا من السكون كأن شيئا مما كان لم يحدث . أما (بدرية) فقد كانت فى الخامسة عشرة ملأت صدرها أنوثة فياضة وانبعث من عينيها بريق جديد . و (سميرة) فى العاشرة تخطو فى طريق الأنوثة بليونة ورقة وحذر . ينقطع نفسها فى منتصف الطريق إذا أجبرتها أختها على الصراخ أو كلفتها فوق ما تحتمل . وكان أى ينظر إليها على وجه الخصوص ويطيل النظر إذا مرت أمامه فى الليالى التى يثقل عليه فيها المرض . ثم نظرات رثاء معينة كانت تلتقى على وجهى إذا دخلت على أبوى وهما ساهمان . وسألت نفسى ذات مرة : لماذا لا يقولان لى ما يضمران فأعرف أين أنا ؟ أليس ذلك خيرا مما نعانیه جميعا ؟ ألا ليتهما يقولان !! لكننى كنت لا أسمع شيئا فى البيت .

كنت حتى ذلك الوقت أشبه بضيف طويل الإقامة يلقي من الإكرام ما يلقيه البنون . لا أعرف طعما واضحا لشيء ولا أتصور الحياة إلا هادئة . و كنت فى أحيان قليلة أتساءل :

— هل سيجيء يوم أكسب فيه مالا وأتزوج امرأة وأرى من حولي
ناسا ينتظرون إشارتي وأمرى ؟! متى يأتي ذلك اليوم ؟!

وكان ذلك من تعطشي إلى المسؤولية وطمعني إلى الضروري من
الصراع ، والنهاية الصغرى منه التي تلزم كل حي . والتي تشبه المראה
الضئيلة في الخمر التي فتنت أني .

على أن ذلك كله لم يقدم ولم يؤخر ولم يغير من الواقع شيئا . بل أخذ
الواقع يسوء وعلامات خوف وقلق تبدو على المرأة المسكينة (وأمسّت
أسيرة الأحلام هذه تنهض من تحت كابوس لتقع تحت كابوس آخر) .
رأت في منامها أن الشجرة الكبيرة القائمة في زاوية الحديقة كسحتها في
إحدى الليالي ريح آتية من الجبل . ورأت مرة أخرى أن الكلب الرابض
تحت شجرة الخروع ينظر إلى إنسان لم تتبين شكله وهو خارج من الباب
الحديدي وكأن دموعا تسيل من زاويتي عيني الكلب وعواء مكتوما
يتردد في فمه . وكانت تقص هذه الرؤى على بصوت خافت وعيناها
منصرفتان عنى إلى شيء آخر ، حتى كأنما كانت تحدث نفسها . ويفعل
ذلك في خيالي ما تفعله اليد في الحوض الساكن حيث تعبت بمائه .
والأدوية تتزاحم إلى جانبه يوما بعد يوم . والزوار يقللون زيارتهم حتى
انقطعوا كأنما رأوا أنه لم يعد هناك داع لضياع الوقت .

حتى الشحاذ المقيم على ناصية الشارع كف عن ابتزاز نقودي بالدعاء
كلما رآني لأن أُمي نهرته عن ذلك مرة . وقد كان أُنِي يعطف عليه
باستمرار .

ثم استكان استكانة الأذلاء وبكى يوما وأعلن أنه يسبب لنا المتاعب

فتركته أمى وذهبت إلى حجرة أخرى وأذابت عينيها من الدموع ثم عادت إلينا بخدود عليها بقية حمرة .

وفي إحدى ليالى الشتاء والريخ تهب في الجبل وتلوى أغصان الأشجار بين كفيها كأنها غداثر شعر . أسلم روحه في صمت كأنه نوم . وأقسمت أمى أنها رأت روعة ملائكية بيضاء ترفرف على فراشه وأعلنت أنها تعرف ماضيه لكنها تعرف أيضا ماذا رأت !! وقبل أن ينبثق صوتها بالصراخ ليلة مات كان الكلب يعوى تحت شجرة الخروع ، والقطار الأخير القادم من العاصمة يحط صفيره على أبواب المحطة ، ويزفر ... قبل أن يتوقف ...



وترك لنا معاشا صغيرا ، وأحزانا كبيرة ، وأما في صرامة السيف ، لم تكن لي موضع نجوى فيما مضى من الأيام حتى ولو كان في نجوى . سجانة حسناء في سجن الحرير ... منظر حلو ومهمة قاسية . وقد أعادت ترتيب « نظامنا » كما يفعل القائد ، وأفهمتنا بطريقتها التي لا تخلو من الإيحاء. أنها تحس أخطارا تهددنا خصوصا من ناحية الاقتصاديات لأن أنى — رحمه الله — استهلك كثيرا في أيامه الأخيرة .

وكنت أخاف من تنبؤاتها كأنها كانت ترى ملاح الغيب . وبعد وفاة أنى تنبأت لنفسها أنها ستكون طويلة العمر . وأطرقت إلى الأرض وهمست بعد قليل : وهذا بعد الأزواج فرصة للمتعاب (وتنهلت) . ولا أكتمك أننى تأثرت بما قالت . ربما فعلت ذلك لكى تثير حماسى أو تزرع الحنان فى قلبى بشكل أكثر قوة . على أننى شاب هادئ . إحساساتى شبه داخلية . قد أحترق فى الباطن ولا يرى على وجهى أثر

الحريق . والدمعة عزيزة كأنها نابغة من الجلمود . وحتى هذه السن لم أمارس الحياة ممارسة واقعية بل كنت كأنتى أقرأ عنها فى كتاب . ولم تعد فرصة اتصالى بالناس ساحة كما كانت من قبل أيام أبى الزاهية وانتعاشه المالى . ولم يكن لى فى المدرسة أصدقاء من أندادى .

كان هناك قلة من أبناء الفلاحين النازحين إلى المدينة لأجل التعليم . يقيمون وحدهم وأهلهم فى القرى ولا ينعمونهم إلا بالفطير والخبز من حين إلى حين . ومن بين هؤلاء الطيبين كان معظم من يعاشرنى . وكنت أرى لوجوههم الشاحبة وأيامهم الجرداء ووحدتهم أيام المواسم ، فأقرضهم من مصروفي ما قد يطلبون . وقلما كنت أستعيد القرض .

ولما ناقشتنى أمى الحساب مرة بعد مرة وضيق على الخناق وبدا فى عينها الشك أننى قمت برحلة إلى حى العاهرات — لم أجد بدا من أن أعترف . وعند ذلك شهقت . وأفهمتنى أنه لا فرق مطلقاً أن يخذلك رجل وأن يخذلك امرأة ... كله ضحك على الذقون .

كان ذلك فى حياة أبى . وكأنا عز على أن يلحقنى هذا فشكوت إليه أمرها فوجم ثم أفاق ثم ضحك ثم قال — وكان راقداً على الكنبه ظهره إليها ووجهه إلى السقف :

— إنهم مساكين . هؤلاء الذين يعيشون وحدهم فى المدينة . لكن ... ليس من الممكن يا بنى أن تمحو وحدك آلام كل الناس . استرح إذن . وسكت ثم استأنف :

— على أن المال الذى تتبرع به ليس من كسبك (وضحك مهونا) وعندما تكسب شيئاً كن حر التصرف فيه . إن أملك محقة إلى حد ما ...

ومنذ ذلك الوقت وأنا أحيّد عن الأصدقاء . أفهمونى أنها مسألة مصالح . ولست أنسى يوم انزوى نى أحدهم فى القسحة الأولى أصفر الوجه متشقق الشفة منتن الفم وطلب منى أن أقرضه شلنا . فجف ريقى ولم أستطع أن أرد عليه وكدت أقوله له : إنهم حرموا على ذلك لكن لسانى سبقتنى فقال غير ما كنت أشاء . قلت : غدا صباحا ...

وكان (غدا) الجمعة . وفى يوم السبت لم أقدم إليه شيئا . وسألنى بعينيه فى استدارتهما اتساع وفى بياضهما اصفرار فأشحت عنه بوجهى فلم يعاودها بعدها ...

أرئى أُمى أن الصداقة نهب وأن الغرام خناح وأن العلاقات بين الناس تنسجها منافع ظاهرة وخافية . ورأيت أنى قليل الأصدقاء تقوم اقتصادياته على (الاكتفاء الذاتى) لا يعطى ولا يأخذ . يسكن بيتا يملكه وينفق مرتبا يقبضه فى نظام مثل حركة البندول متسق لا يتخلف . حتى إذا ما ألح عليه الداء حذف أشياء بدل أشياء وباعت أُمى معظم حلبيها واستجانب الله لدعاء المريض فاختره قبل أن يجور على قوت الأولاد ، فترك من بعده أسرة كلها أرامل ليس فيها رجل يعتمد عليه !

وأظهر شخصية فينا كانت شخصية أُمى . وكانت إمكانيات النجاة فى السفينة التى تقودها إمكانيات ضعيفة . فهناك : أنا .. وأنا طالب فى أخريات دراستى الثانوية لا تثير شخصيتى ولا تربيتى ثقة ولا حماسة . وبعدى فى الترتيب تأتى (بدرية) ... غفيرة تحتاج إلى قيد . شخصيتها كماء النار شديدة الكى . وتشغل بال أُمى أكثر من أى فينا ، فكانت ترى أن أملها وقمة سعادتها أن تدخلها إلى بيت زوج . ثم تأتى (سميرة) آخر الأمر ... مثل بيت الشعر فى دفتر الحساب . فى موطن شبه غريب فى

طبيعتها . كنت وأنا شاب غير مرهف أتألم لها حين أرى (بلرية) تطلق عليها من رعونتها دشا بعددش لسبب لعله تافه . فتحتمل هي نظيشها في ألم صامت كأنها زهرة تدعك بين إصبعين .

مرة كانت تمسح البلاط وتستصحب ماء المسح في جردل وتعصر الخيشة بكفين غير قادرتين ، وحبات العرق على وجهها المحتقن كأنها الندى على الورد ، ونبضات قلبها تظهر في نقرة شعرها ونفسها مقطوع — فحدث أن عثرت في الجردل وكان خلف ظهرها وهي مكبة على يديها ورجليها ، فأريق ما فيه من ماء وسخ . وعند ذاك خرجت لها (بلرية) من حجرة ما كما تخرج الحداة من الوكر وضربت على صدرها بكفها الجافة فتراجعت البنية بشياها المشمورة الكاشفة عن ساقها حتى استندت إلى الحائط وصارت تتأوه بحركة مكتومة وبصوت لا يجذب مخرجا ، وغاب الدم عن وجهها حتى ابيضت أرنبه أنفها . ولما نزلت أُمي من فوق ورأت ثورة ابنها الهادئ وشحوب ابنتها الصغيرة انضمت إلى معسكرنا وأمسكت (بلرية) من شعرها النامى وأجبرتها على أن تستعمل الجردل . مرة واحدة وانقضى الأمر ثم عادت الأمور إلى ما كانت عليه .

على أن المهم في الموضوع هو ما آلت إليه اقتصاديات بيتنا بعد موت أُمي . كان لا بد لنا من مورد جديد يؤازر بضعة جنهات تدخل إلينا من المعاش ... عرق أُمي الموظف وهو في القبر . وكان موقفنا من ذلك يدعو إلى التفكير . كنت في السنة الرابعة الثانوية بينى وبين الشط عام وبقية العام التي تركنا أُمي خلاله . وكنت بطيء الخطأ غير مأمون الرحلة فكان من الجائز أن أتعثر في الطريق فلا أتم مرحلة تعليمي في هذه المدة . وأرسل

لنا رئيس أبى رسالة مع أحد الخدم أبدى استعدادة فيها أن يعيننى فى إحدى الوظائف لأنه يعلم حقيقة حالنا .

وقد كان أبى من المحبوبين لديه ولم يكن يخفى عنه شيئا .
وسهرت أنا وأمى ندرس الموضوع . ماذا أقول ؟! هل كنا ندرسه معا ؟! لا ، مطلقا . قالت أمى وهى جالسة على المصلى ونظراتها فى حجبها :

— لنفرض أنك توظفت . هذا حسن . فهل بضعة الجنيئات التى ستدخل إلينا تساوى قطع تعليمك . أظن لا .
فسارعت بالموافقة .

فألقت على نظرة شاملة كأنها احتوتنى بها . ودخلت علينا (بدرية)
تقترح أن تقلى العجة بالسمن فردتها أمى إلى الصواب بتخفيفها من المستقبل وأمرتها أن تقلبها بالزيت ، فلوت بوزها وخرجت من الحجرة .
وما هى إلا هنيهة حتى رجعنا إلى مناقشة الموضوع ، قالت أمى :
— ولنفرض أن الظروف لم تكن فى صفنا وأننى مرضت مثلا أو أن إحدى أخواتك طالبتنا بجهاز عاجل ، فهل يكفيننا المبلغ الذى قرر لنا معاشا ؟

فلم أرد .

فأجابت بالنيابة عنى :

— من الخير إذن أن تذهب فتقابل الأستاذ الجمال . توظف .

فسارعت بالموافقة .

وعندئذ وصلت إلى أنوفنا رائحة من المطبخ . هى رائحة عجة تقلى بالسمن . فنظرت إلى أمى نظرة شاملة كأنها احتوتنى بها . وبدا فى عينيها

اعتراف غامض بأن صاحب الرأى أكثر اعتبارا من الناس حتى ولو كان
خصما . ثم انصرفنا عن الموضوع .

ودخل مساء ذلك اليوم .

كان الليل فى الضاحية ساكنا لا تصدر عنه حركة . إلا انزلاق
الحديد على الحديد فى حركة القطارات الذاهبة والآتية وهفة أوراق الشجر
تحت الشيش تدخل من أذنى إلى قلبى كهيبة كأنها وسواس . و (سميرة)
تذاكر إلى جوارى ملتبة الخدين من فعل البرد وأوردتها تتعرج تحت بشرة
صدرها فى لون الفيروز وتسالنى من حين إلى حين سؤالا مدرسيا
يعترضها . و (بدرية) هناك مع أمها لا ندرى ماذا تصنعان .

كنت حاسا بالمسئولية إحساسا كخوف السكران أن يضل الطريق .
و كنت أتمنى أن أكون موظفا . أريد أن أعين هذه الحالة . « أن أكسب
وأ تزوج فأملك امرأة ويكون من حولى من أمرهم فيسمعون أمرى !!
لم أتمتع بذلك قط . كالمرضى الطفل الفقير الذى بات يهذى بالتفاح .
وعندئذ صر الباب وانفرج منه وجه أمى أبيض زاهيا فى الملابس السود
ونور مصباح الصالة واقع على ظهرها .

وفجأة تمت شفتا (سميرة) التى كانت غير حاضرة الدهن
ونظرت أنا إلى أمى أسأل عما تريد .

دخلت وفى رجلها شبشب من الصوف لا يسمع له وقع ثم اتكأت
على حافة المكتب وسألتنى :

— هل تذهب غدا لمقابلة « الأستاذ الجمال » الذى أرسل فى طلبك
من أجل الوظيفة ؟

فكان جوابى سؤالا آخر :

— أذهب ؟

فوافقت من خلال تنهدا ثم صارحتنى بمخاوفها أن أعين خارج القاهرة . إذن ليصبحن حساب الربح أدنى من الخسارة . فالييت يريد رجلا وعدة جنهات :

— هذا ما ينبغي أن تقوله فى وضوح . ابدل كثيرا من الاحترام واجعل فى ملاحك شيئا من التعبير (وعضت على نواجذها من الضيقة) .

— حاضر !

فقال بانهال جديد :

— أنا لو كنت تعودت أن أقابل الموظفين ... لذهبت إليه !!

— ليس هناك ما يدعو إلى ذلك .

فتشاغلت عنى بإلقاء نظرة على كتاب (سميرة) وانسحبت تخر رجلها بلا صوت فى التيشب الصوفى . وحين ألقىت نظرة على ظهرها تبينت أنها هزلت ، فالتوب أكثر سعة وقد كان محشورا فى جسمها حشرا .

وفى صبيحة اليوم التالى لم أذهب إلى المدرسة . صعدت إلى الدور الأول من مبنى وزارة الصحة لأقابل « الأستاذ الجمال » وحين رآنى الساعى الجالس على بابة عرفنى بملايح أنى فمصمص بشفتيه . كان الساعى رجلا مسنا ذا لحية سوداء مستديرة كأنه يصبغها . سليم العينين ربعة . وبدأ يحوقل ولعله تذكر أبناءه . وجلست على أحد الكراسى فى الطرقة تحت الجرس ذى (التابلوه) فشعرت أننى فى مأتم أنى . كل من يمر يخلق . وبمنظرة واحدة إلى الساعى يعرفون من أنا . وخيل لى أن موت

الأب جريمة ليس للأبناء دخل فيها . فغمرني شعور من الخجل واحتقن وجهي الزاهي أو الصورة الثانية من وجه أبنى الراحل . وعاد إلى الساعى يؤكد أنني سأقابل « الأستاذ الجمال » فور خروج الزائر ، فتنهلت وجلست أستمع إلى صرير الجرس وأتلهى بعامل (البوفيه) العسبي الذى يمر كالنحلة كل خمس دقائق وعلى كفه صينية المشروبات . وسألت نفسى لكى أتشجع :

— هل لهذا الولد أب ؟

ثم أجبت :

— ربما ... لا .

وأردفت بحماسة :

— وربما .. ولا أم .. يتيم .. لطيم .

وغمرتني حماسة الجبان حين يسمع (المارش) العسكرى . ونادانى الساعى فدخلت أهروول . وكان « الأستاذ الجمال » متكورا على كرسي المكتب ، طوله كعرضه وبسمة مؤنسة تضيء من حوله المكان . واختصر الرجل الكلام كأنه يملئ برقية :

— أنتم موافقون إذن ... حسن ... أوه . إنك لم تعد صغيرا ... وضغط جرسا فدخل أحد الموظفين .

— معه يا « رجب افندى » إلى المستخدمين ... إنه من طرفي . فسرت خلف « رجب افندى » من سلم إلى سلم ومن دهليز إلى دهليز إلى حيث كتبت طلبا وتركته . وفى قطار الساعة الحادية عشرة رجعت إلى (حلوان) حيث قصصت على أمى موجز الخبز وكانت تصفى إلى بوجه لا يبتسم .



وأصبحت كاتباً في إدارة الحسابات بوزارة الصحة . أتقاضى ستة جنيهات في الشهر وأجمع وأطرح وأضرب وأقسم .
وسألت نفسي ذات مرة : لماذا كتب على أن أعيش بين الأرقام ؟ هل أرادت الأقدار أن تضيف إلى حياتي لونا من (الثبوت الذي لا يتغير) كان ينقصها ؟! وقهقهت ساخراً وأنا أصعد سلم المحطة لأدرك القطار قبل أن يتركها .

ولم يكن يعنيني المورد بقدر ما كان يعنيني ما نأخذه منه . فبلدية قعيدة البيت تساعد أمها في قضاء حاجتنا . وسميرة تتعلم وتفتتح وتبشر بمستقبل في كل مرافقها الحيوية .

وبعد خمسة وأربعين يوماً أمسكت بالنقود للمرة الأولى من عرق

جيني . من خزانة الحكومة . من نفس المكان الذي يصرف منه الوزير .
ثمانية جنيهات إلا قليلا وزعتها على جيوبى حتى لا تنشل . بعد أن أعطيت
منها « عم سيد » شلنا . وركبت القطار قبل الميعاد ووصلت إلى (حلوان) .
خيل إلى وأنا أصعد سلم السلامك أنني أطول من أمس وأكثر ضخامة
وفخامة . وكان اليوم خميسا و (سميرة) عادت من المدرسة . تدق
ساعة دخولى مسمارا فى الصالة لتعلق صورة جديدة لها . ونزلت من على
الكرسى والتصقت بى تطلعننى على الصورة ، وقبلتها فى جبينها وناديت
أمى فجاءت من الحمام وكفها حمراء من دحك الغسيل وعرق طفيف على
شفتها العليا .

ودخلت إلى حبرقى وتبعتنى . كل شىء فى كان فويا . وكنت أمشى
بخيلاء . وجلسنا على أريكة جنب فراشى وصرت أخرج من كل جيب
نقودا وأضع كل ذلك بين يدى أمى .
وأعادت تجفيف كفها فى ذيل ثوبها ثم أمسكت النقود . ولاحظت أن
أناملها ترتجف وأن شيئا من الحزن يطفو على وجهها وزايلتنى الفرحه
وحل مكانها وجوم غريب . وإذا انقلب مرحنا انقباضا كان يدعو إلى
التقزز كالغسل إذا خلطته بالملح .

— ماذا بك يا ماما ؟ ... هل يزنك أن أقدم إليك مرتبى ؟

فأجابت بأسف لم تستطع ستره :

— أبدا يا بنى ... لكننى تذكرت ماذا كان يفعل أبوك ... آه ...
ولثمت النقود وأطبقت عليها كفها . ثم نظرت من خلال النافذة
وأنصت إلى الكلب الذى ينبج . وإلى (سميرة) التى عادت تدق المسامير
ثم قالت أمى بصوت حزين :

— لقد أصبحت أبا في وقت مبكر ... لك ثلاث من البنات ...
اثنتان منهما قابلتان للزواج . أ .. آ ..
فتدخلت في الموضوع :
— إننى سعيد بكل هذا يا ماما .
— أنا واثقة . لكننى بمناسبة بدء أكلنا من عرق جبينك أحب أن
أذكرك بشيء . نحن معك كمن ينظر إلى الدنيا بعين واحدة فإذا رمدت أو
فقدت عاش في الظلام . تمام ؟!
قلت بشيء من الجزع :
— وما الداعي لهذا كله ؟ أأنت ابنك ؟!
— ليس في الدنيا أم مزورة . قوة الأمومة في أنها من المحال أن يتسرب
إليها الشك . أنا أملك ضرورى . لكن ... بعد وفاة أهلك أحسست أننى
لا أستطيع أن أعيش بدونك ...
— وأنا أيضا .
فأجابته بلهجة أمر :
— اسمع منى وكن طويل البال . خير لك أن تفهم الموقف بوضوح
فأنت دليل القافلة . هذا البيت ابن تجربة واحدة لا يحتمل بعدها شيئا
فنحن إن فقدناك بطريقة من الطرق ضاع منا كل شيء .
ونظرت ساهما ووجهى شاحب . كنت آنذاك غير أهل للتعبير إذا
خضت هذه المواقف خصوصا مع أمى . لكن باطنى كان يغلى . وكان فيه
شيء أقوى من الذى قالته . لكن الفرق بينى وبين أمى أنها (تستطيع أن
تقول) . والمعانى تطل من العينين . وقد أدركت فعلا ما يدور فى داخلى

فقبلتني في كنفى وانصرفت في ثوبها الأسود تطاء الأرض برفق من يخشى أن يوقظ نائما...

وكان كل هذا مدعاة إلى التفكير .

وبدا الوضع متناقضا بين حياقي في البيت وحياقي في العمل . أمي وأخواتي ينظرون بخوف على . ولكن الزملاء الذين أعاشرهم كانوا يرهقونني ويقسون في تلقيني أصول الحسابات . وكان بعضهم يسخر من أخطائي .

حسن . ليس إذن ما تخاف عليه أنت يخاف عليه غيرك من الناس . وعندما كانوا يضيقون على الخناق ولا أجدر بينهم نصيرا كنت أتحيل أن أمي بشخصيتها القوية داخلة علينا من الباب . وأن هؤلاء الشبان الطوال اللسان استطاعت أمي بقوة جدها ومهابة نظرتها أن تلجم أفواههم . هناك إذن حياة خارجية ينبغي أن نمارسها ونحن صغار ... وتلك هي التي منعت منها . لا يتعلم السباحة من يخافون عليه من الغرق ، ويغرق أخيرا من يتعلم السباحة . آه ...

ودعك الآن من حياة الديوان فالمهم هو حياتنا في البيت .

مرتبى ومعاش أمي وأخواتي وإدارة حكيمة فرضت على الجميع — أتاح لنا هذا حياة رخيصة معكوفة . أما نصيبي من مرتبى بعد اشتراك القطار فكان طفيفا لا يتجاوز ثمن فنجان من القهوة أو كوب من الشاي أو زجاجة غازوزة كل يوم آخذة دفعة واحدة أول الشهر . وعلى أن أوازن نفقاتي بدقة وأن أحفر حفرة لأردم بترابها حفرة . فإذا أردت دخول السينما انصرفت عن المشروبات بضعة أيام ثم أخذت من أمي نصف قيمة التذكرة ..

هل عاملت أئى هكذا ؟ لقد كان يشرب أشياء غير الشاى ويذهب إلى أماكن غير السيئاً وكانت تطلب رضاه . أما أنا فأئنى أعطى وأطلب الرضا ؟!

وحاولت أن أعثر على الفرق بين الرجلين ... بينى وبين أئى .. فلم أستطع . وقلت أن خير مرشد لى أن أحاكىه بطريقة ما فجئت أول الشهر التالى وقدمت إليها المرتب ناقصا خمسين قرشا . فأعادت عد النقود ثم أعادت عد النقود . ثم سألتنى بابتسامة فيها مرارة :

— مبروك هل حصلت على ترقية ؟!
كنت أريد أن أمزح أو أن أجرب لكننى كنت أضعف من أن أحمل لطمة . فهتفت محتجا :

— ماذا يا ماما ؟
فأجابت بتراجع أقوى من الهجوم :
— لا شئ ... لا شئ ... إنه مالك وأنت حر فيه . لكننى أحببت أن أضبط الحسبة .

— إن أحد السعاة مات فجأة وترك أولادا صغارا فجمعوا له إعانة جبرية دفعت فيها هذا المبلغ ... معقول ؟!

وأحسست أن فكى الأسفل قد تراخت أعصابه وأنه على وشك أن يهتز . وثار فى باطنى صخب . لماذا اخترت هذا النوع من الأكاذيب ؟ ألا إنه هو السيف الذى جرحنا به الله ؟! على أن وجه أئى قد بدا أمامى مريعا للغاية حتى كاد يعملنى على الاعتراف . تخيل إلى أنه قد انتفخ وتضخم كأنه تورم واتسعت عيناها القويتان كعينين طبعتا على الشاشة وفاض منهما شك وتعبير وتأنيب وحزن وذكرى . وكأئنى رأيت كل

شيء فيهما إلا ثقتهما بى وتصديقهما لما أقول . وكانت النقود لا تزال بينى وبينها على مساند الكنبه ونحن جالسان وجها لوجه فجمعتها هى بيد مهزوزة ثم أخذتها وانصرفت تطأ الأرض برفق وتنساب كالطيف وقد بدا الثوب الأسود عند خصرها أكثر اتساعا . وتركتنى وحدى .

* * *

وظللت مكافى لابسا بدلتى أحاول معرفة ما كان أبى يقهر به هذه السيدة . طبعاً نحن رجالان مختلفان .

ولم أستطع أن أغادر الكنبه . وكان المبلغ فى جيب بنطلونى الخلفى فى ظرف حكومى مستعمل . حذفته مزاحاً أول الأمر فانقلب المزاح إلى جد دون أن أشعر فصممت على كذبتى .

وسمعت جلبتها فى المطبخ ومعها ضجيج (بلدىة) . كانتا مختلفتين على شيء وكل منهما متمسكة بوجهة نظرها . وخرجت (سميرة) وعادت عشر مرات إلى الدكاكين تشتري وتدفع . وأخيراً خلعت سترقى ووضعتها على كرسي وتمددت فى السرير ببقية الملابس حتى الحذاء فرحت فى النوم .. ثم استيقظت على كفها المثلوجة تهز رأسى وهى تقول لى بخنان فطرى :

— هكنا بملابسك ١٩٠ .. هل أنت تعبان ... قم ... الغداء على المائدة .

ولم آكل بشهية . كان هناك باذنجان مقلى طازج وملوخية طبخت أمس ولم يكن معها لحم كثير . وخصتنى أمى بمطاييب الأكلة لكننى رفضت . ويظهر أن الرفض لم يصادف وقته المناسب فأثار فى نفسها غيظاً .

وأكلت (بدرية) ما كان موضع النزاع بيننا في حين أن (سميرة) الصغيرة رفضت ذلك . وقمنا عن الطعام وكنت لا أزال بملابسى . فخرجت صوب الخلاء .

وبدا طريق المرصد المنحدر مبلولا تحت الشمس . كان صنوبر أرضى كبير قد بات يرشح طول الليل قبلل الأسفلت وندى الحشائش النادرة النابتة في بعض الأماكن على جنبي الطريق .

ولم أصعد الطريق كما كان يعلو لي لأن الشتاء قد ولى . فألقيت نظرة على المستشفى الجاثم في تعقل وسكون بالقرب من صهريج الماء ولو أن الذين ينزلون فيه ليسوا عقلاء . ثم سرت .

ووجدتني فجأة في الحديقة اليابانية تحت ظلة مجذولة بالخوص ولم يكن هناك رواد كثيرون . والأزهار قريبة عهد بالربيع متفتحة يانعة . ونسمات تنز في ذوائب (الجزورينا) . وقطة وقطة ... وفراشة وفراشة . وأنا وحدى ...

ورجعت أفكاري إلى أمي . إننى أعرف خطتها الآن . واضحة لا غموض فيها . قدمتها لي على جرعات : « تتزوج (بدرية) ثم تتزوج (سميرة) . ثم تحجج هي . ثم أتزوج أنا » ... هي . ما أطول البرنامج !! إن الزملاء حولي لا يفترون يتحدثون عن النساء ... ما بين حلال وحرام . خصوصا (فهمي) ذو الشعر الأسود والحد المنهوك والبشرة البيضاء . دخل عليه الرئيس يوما نائما على الدوسيه فقال له : صبح النوم يا أفندى . لقد امتصت النساء نخاعك ...

فانتصب صامتا وضحكنا فأردف قائلا له : الحكومة تعطيك وهن يأخذن . فلماذا لا تقسم بشيء من العدل ؟!

لكن ...

لن أترك هذا البيت ؟! أمى تحبني جدا ويبدو الحنان حتى في لمسة
كفيها . لكنها تقيم حولي سورا كأنني حديقة فواكه .
لا أستطيع أن أتأخر في الليل إلا إذا كانت هناك أعمال إضافية .
وعندما أعود ، ويكون البنات قد نمن . تجلس لتعشيني وتسامرنى . إنها
امراة عجيبة مليئة بالتناقض . يحملني حنانها على أن أريق في سبيلها دمي
وتحملني قسوتها على التفكير في الانتحار ... وكله موت !!
وحكاياتها دائما لا تخلو من المغزى . ونظراتها دائما لا تخلو من
الفحص . إلا أنني في ذلك اليوم الذى خبأت فيه النقود كنت ثائرا عليها
حتى سخرت من برناج حياتنا الذى رسمته أمى في هدوء .
وعندما عدت إلى البيت في المساء وجدتها ذبعت دجاجة وطبخت
معها كشكا . هى تعرف أنني أحب هذه الأكلة وأننى أطلبها منها في كل
مناسبة طيبة ... كما نعمل الكعك في العيد . وأدركت أنها تسترضيني .
وحين جلسنا إلى العشاء ابتسمت وهى تقدم لى صدر الدجاجة وكان فى
عينها عتاب عزيز . إنها تستطيع أن تفرق بين ما تسمع من صدق وكذب
دون أن تطلب على أحدهما دليلا . وكان ذلك جل ما يخيفنى منها .
وصرت آكل ووجهى إلى الطبق و (سميرة) إلى جوارى تمصص العظم
فى رقة ونظافة كأنها قطعة يضاء . و (بدرية) تتمطق وتثرثر وتشرب
وتتلفت وتحدث صوتا بملعقتها كلما لمست الطبق . أما أمى فكانت تنظر
إلينا جميعا وتردد الطعام بلا شهية . وأخيرا التقت نظراتنا فابتسمت لى
بنحان :

— فؤاد ... هل أنت غضبان ؟!

وقد مدت بقية ما في يدها إلى . قلت وعلى وجهي علامات الجذ :

— أبدا يا ماما . لا . بالهناء والشفاء لك أنت . كدت أشبع .

ورجعت آكل . فاستطردت في صوت كسير :

— هل أنت غضبان ؟

— لا . مطلقا . لكنني تأملت من عدم تصديقك لي .

فضحكت بشهية أكثر من التي كانت تأكل بها . وكان كوعاها على

المائدة وكفاها قريبتان من وجهها . ثم قالت :

— آه أيها الصغير . عندما تصبح أبا ويصبح هؤلاء البنات أمهات ...

تعرفون جميعا كيف كنا نخبكم ...

وقامت فغسلت يديها وجلست تتركب ملاءة على لحاف ... وسألت

نفسى وأنا لا أزال في مكاني عما إذا كانت أعطتني جوابا حاسما عن

تشككها في . فلم أجد ولم أعود التكلم في هذا الموضوع .

وبقى المبلغ في جيبي حيث كان ثمانية أيام كاملة . وفي اليوم التاسع

جلس الشبان من حولي في الديوان آخر اليوم العمل يتكلمون عن

سهراتهم وجلس (فهمي) يصف ...

كان داعرا معصورا قلق العينين تبلو على وجهه آثار المفاصد ، ضرب

مرة في بيت سرى وضاعت حافظة نقوده وكانت فارغة وخدع

عدة فتيات من بنات المدارس ، يزعم أن إحداهن انتحرت من حبها فيه

وحسرتها على ما منحته . وله أم تدارى عورته وتغطي خسارته من

نفقات البيت . وتعلقت به إحدى المؤسسات الرسمية حتى فكر في أن

يسحبها من الأوحال ويعيدها إلى حياة الأسرة فيتزوجها !!

وجمعتنى وإياه الطريق ونحن خارجان من العمل . فسألته وبقياء
الدهشة لا تزال عالقة بنفسى :

— صحيح يا فهمى أن فى مقلورك أن تتزوج مومسا ؟

فتنزى عوده الضئيل وحلق فى بعينين قويتين :

— لماذا لا ؟! ... إن الله يقبل التوبة فلماذا نرفضها نحن ؟

— وأبوك ؟ وأمك ؟ ألا تخاف غضبهما ؟!

فجلجلت ضحكته حتى التفت إلينا شيخ كان يمشى على مقربة وحرك
رأسه فى أسف . ثم قال فهمى :

— هل عرفت إحداهن ؟

— إحدى من ؟

— إحدى المومسات ؟

— أعوذ بالله .

— من جهلك .

— وهل الجهل بالرديلة جهل ؟!

— ليس هذا من عملى . كل ما أعلمه هو أن أحسن علاقة تربطك

بالأشياء هى معرفتك بها . حاول أن تعرف . إن وجهك قد احمر .

لا داعى لحياء العذارى . هل أساعدك على التجربة ؟ ..

— أيها الفاسد !

— احتضنت فتاة فسلمتنى نفسها وهى تقول لى : أيها المجرم وأيها

الفاسد مثلك تماما . موافق ؟ وداعا سأمر على أختى الصغيرة لأخذها من

الروضة . فكر فى الموضوع .

* * *

ولو لم يكن معنى مثل هذا المبلغ لما اقترفت هذا الفعل . إن أمي محقة .
 وستفد عيني إلى قرارة نفسى عندما تلقانى فى الصالة . وألقيت نظرة على
 وجهى فى مرآة حلاق على واجهة الدكان فى الشارع فلم أر فيه ما يلفت
 النظر . لكننى كنت شاعرا باثمنزاز عميق كأننى على وشك أن أتقيأ ،
 فجلست على قهوة وطلبت كوبا من الليمون كثير العصير قليل السكر .
 كان فهمى أو صلتى حتى بابها وأوصاها بى بغمزة عين ثم انصرف .
 ولأول مرة رأيت المرأة غير (أم) وكانت شيئا مريعا . حتى المكان لم يكن
 مخدعا بل خيل إلى أنه « مشرحة » ولفت نظرى إلى جنب الفراش إبريق
 ومغسلة هى طبق عميق . ونور أحمر يلقي ذوبه علينا . وكنا على كنية ولم
 تندمنى كلمة بعد حتى سألتنى بلهجة عارية غجرية مهزوزة : هىء ...
 ألا تقبلنى ؟ فذقت طعم العجين الأحمر على شفتها ولم أذق طعم القبله .
 وحاولت أن أبصق لكننى خفت وفكرت أن أعطيها ثم انصرف لكنها
 سألتنى وهى تحرك حاجبيها : أنت صديق فهمى ؟
 فهززت رأسى مؤمنا . فقالت من خلال ضحكاتها : هل هذا
 معقول ؟

قلت فى نفسى إنها تعذبنى ولا تثيرنى . ووجدتني وجهها لوجه أمام
 شفتها مرة أخرى فالتقمت العجين . وقامت فخلعت ثوبا ثم وقفت فى
 وسط الحجرة وقالت بلهجة اليأس : توتو ... آه ألا ترانى ؟!
 فقلت ببساطة وغضب وبنداجة : ليس اسمى توتو ! فرفعت وجهها
 إلى السقف رويدا رويدا فى ضحكة ذات جنور حتى انمط عنقها و طال ثم
 أولتنى ظهرها وصعدت إلى السرير . ولما استقلت عليه قالت بتهكم : إذا
 لم تدركنى حالا فإن النوم سيفلبنى سيفلبنى . آه ... آه ... آه ..

وانخرطت تتأوه كأنها مجروحة في الوقت الذي كنت أعمل فيه
ما يعملها الطالب البليد أمام الممتحن حين يستعيده السؤال بخرقة
لا شعورية حتى تهبط المعجزة .

ولما صعدت إلى جنبها أخذها مني ضحك خرج من فمها وأنفها معا
وانتفض به جسمها فانطفأت . كما تنطفئ الشمعة فجمعت ثيابي
وانصرفت ...

قالت وأنا خارج من الباب : سلم على ماما ...
وعلى القهوة شربت كوبا من الليمون وطلبت فنجالاً من الشاي .
أهؤلاء هم النساء ؟! أهذه هي المعرفة يا فهمي ؟!
ثم ركب القطار وعدت إلى حلوان .

كانت الساعة قد جاوزت العاشرة فتعشى البنات لسبب ما وأوين إلى
فراشهن وتعشيت أنا وأمي وحدنا . وكنت طول الجلسة أحاول أن أظهر
مرحاً لكنها سألتني فجأة عما إذا كنت أحس تعباً ؟

— حقيقة أنا أحس بالغثيان .

— هل رأيت شيئاً مقرفاً ؟!

فكدت أعرض على شفتي لكنني أفقت وقلت :

— تمام .. بصقة على أرض القطار كانت تلمع تحت النور . (ها .

ها . هاء) ولم يستطع أحد أن يزيحها عن الطريق .

— تشرب ليمونا أو قهوة ؟

— شربت .

— أين ؟

— في (بوفيه) المحطة .

— انس الموضوع . لتتكلم في شيء آخر . لقد استطعت أن أدخر
عشرة جنيهات من دخلنا في الأشهر الأخيرة . آه ... الأيام تمر . من
يصدق أنه قد مضى عليك في الوظيفة عامان . على فكرة لا بد أن نتصدق
على روح والدك .

— أظنها الآن مستريحة .

— طبعاً لكنها تبدأ تماماً عندما أزوج البنات ، آ ... (بديرة) : إننى
أفكر فيها دائماً يا فؤاد ... بقلبي !
وعلا وجهها طابع شبه حزين ثم نظرت إلى الأرض .



٧

على أن (فهمى) قد علمنى أشياء كثيرة ...
كان يعلمنى ويسخر منى فى وقت واحد . فإذا غضبت بصرنى فى
هلوء :

— لا تحزن أيها الساذج . نخير تجربة هى ما نشترىها بثمن . استفد
بشبابك . اعمل وأنت قادر . نخض لجة الحب . اكشف عن وجه الرذيلة
وكن فضوليا . اكسب واخسر وستكون أخيرا من الكاسيين .
— لست أنسى تجربة صديقتك ذات الغرفة الحمراء .
فقهقه ضاحكا :

— لقد قالت لى كل شىء لكن الله حلیم ستار . ألم تذق الحب بشكل
أحسن ؟

— لا أريد .

— كذاب . (وابتسم) .

ونظرت إلى وجهه فرأيت عليه شحوب من نجا من نزيف فلم أقل له شيئا . على أنني بيني وبين نفسي كنت أحسد هذه الروح التي لا يستطيع جسمه أن يسعها . كان يتوهج ككوكب الزهرة في الليلة المظلماء ، حتى أيقنت بوحى قلبي أنه سيموت أخضر العود ...
ثم ظهر في محيط أسرتنا صداقة جديدة ...

امرأة سمعت أمي تدعوها (فاطمة هانم) تعرفت عليها في إدارة المعاشات بين صفوف الأرامل في الثياب السود ، ثم حضرت إلى حلوان لتزورنا ذات مساء .

كانت في علوبة الماء وليونة المعجين تتكلم كأنها مريضة وتسالم كأنها أسيرة . ولعل أمي وجدت فيها صديقة طيبة تحقق لها بعض مآرب نفسها .

صافحتها في حجرة الصالون وكان عليها يومئذ معطف قديم حرير أسود احمر نسجه شيئا ما . وفي يدها حقيبة سوداء كبيرة تحمل فيها أوراقها وليس فيها شيء من أدوات الزينة .

وكانت الأيام تنسج بين المرأتين علاقات تدل على البقاء . فبعد صرف المعاش كل شهر كانتا تنزلان إلى (الغورية) لشترتيا ما يلزم لأولاد إحداهما . وقالت لى أمي ذات مساء :

— إن فاطمة هانم اقترضت منها خمسة جنيهات لشأن طارئ (وقد أبلغتني هذا للعلم) فسألتها — بالمناسبة — عن تفصيل حياتها .

كان زوجها موظفا في (العوايد) ويبدو أنه لم يكن نظيف اليد . فقد كانت عيشتهم أرقى من دخلهم ومظهرهم أضخم من حقيقتهم . لكن الرجل على الرغم من كل شيء لم يستطع أن يدخر شيئا مما حفظه . ثم خطفه الموت فترك بنتا وولدين . (قلت في نفسي) : أما أوى فقد ترك (ولدا وبنتين) والبنت هى الكبرى والولدان لا يزالان فى المدرسة ، وإن كان أحدهما على وشك إتمام تعليمه المتوسط .

كان معاشهم يكفى عيشتهم الضئيلة . ودخلهم كالمصباح ينطفئ دائما فى آخريات الليل فلم تكن الأيام العشرة الأخيرة من الشهر تشهد عندهم رخاء . فضلا على أنهم سكان . ليس لديهم بيت يملكونه كما هى الحال عند الأرملة (أم فؤاد) .

وكانت (فاطمة هانم) تتكلم دائما عن عز قديم وترغم أن جدها لأنها كان (سنجق) وأن أباهما أحد المصريين الأغنياء ، لكن الزمن زحف عليهم من الجانبين .

وكانت أمى تسمع دائما إلى حكايات العز من فم (فاطمة هانم) بإصغاء المتصوف إلى الموعظة . ففعل هذا فى نفس صديقتها فعل السحر فأحببتها كثيرا .

وفى ليلة مولد النبى رأيت المرأتين تعملان (الكسكسى) عندنا فى حلوان لأن ابنة (السنجق) لم تكن تحيد صنعه . ثم مرضت أمى بعد ذلك بعدة أيام .

التهيت ركبناها وامتلائتا ماء ومنعها الطبيب من مغادرة الفراش لأن الروماتزم حاد يتطلب راحة طويلة . ولما انقطعت أخبارها عن صديقتها جاءت تسأل عنها ورأيت يومئذ عجبا : كانت (فاطمة هانم) تبكى

بغزارة بعين غير سليمة الأهداب لا تخلو من الكحل ، وتقبل أمى فى كل مكان كأنها أختها وتتحنس قدميها من تحت الغطاء فى تدليك خفيف وحب ورفق . وتمنت لو تكون هى المريضة .

قالت أمى وعلى وجهها شعاع ابتسام :
— إن أولادك أكثر احتياجا إلسيك من أولادى . (ودعت لها بالسلامة) :

— لم أجد لى أختا إلا وأنا أرملة . ليتنى عرفتك قبل ذلك .
وفى اليوم التالى جاءت الأسرة كلها . وعرفت الكبير منها وهو طالب فى التجارة المتوسطة . جدير حقا بأن تطعمه امرأة . قالت (فاطمة هانم) فى معرض تعريفنا به :

— هذا هو أكبر الصبيان . النار تخلف ترايا !! كان أبوه رجلا يلعب بالبيضة والحجر .

ثم نظرت إليه بعينها المكحولة وأهدابها المهوشة ، فقابل نظرتها بنظرة تأنيب . فكفت . ثم استطردت بعد تنهد :
— لكن طول الأجل يبلغ الأمل .

أما الولد الأصغر فلا يحيا منه شىء . وأما البنت الكبرى فكان اسمها (زينب) . أخذت من (فاطمة هانم) طراوتها وطبعها المرن . طويلة الصمت تسرب عينها فى خبث علقت عليه أمى ذات مرة — ولست أدرى أكان ذلك حقا أم قصدت به التنفير — فقالت :

— إنها من المهادئات وباطنها ناثر . ونظرتها من تحت تؤكد للفظن أنها لا تدع الفرصة الأولى تغفلت منها !! .. كيف أنجبت تلك البلهاء كل ذلك الخبث ؟!

لكن الحبل بينى وبين (زينب) كان قصيرا للغاية . لم يكن هناك فرصة فختلى فيها إن حدثتني نفسى أن أنشىء علاقة غرام . كان طعم العجين الأحمر على الشفاه يظهر فى فمى كلما رأيت صبغا . وعملية تعذيب الفريسة أو مداعباتها تعاودنى إذا خلوت بامرأة . وعلى أن (زينب) كانت رزينة جدا . ييلو أنها كتوم إلى حد تستطيع به كتم حمل غير مشروع . وكل هذه الظلال أبعدتنى عنها ذهنيا لأننى فشلت ذات مساء فى دخول (باب مفتوح) !

أما (بدرية) فكانت كثيرة الضحك زئبقية النظرات طوال وجود هذه الأسرة فى بيتنا . وقد نهرتها أُمى بنظراتها الخنجرية كأنما تريد أن تقول لها : ألا ترين ما تفعله الأخرى ؟!

وفى هذه الفترة بعد أن مضى على توظيفى أربع سنوات دخل على (عم سيد) الفراش ودخل خلفه الهواء البارد من فتحة الباب وقال فى أذنى : إن شخصا غريبا يطلبك فى الصالة ولا يريد أن يدخل . فلما خرجت لم أجد أحدا فتلفت دهشا فقال (عم سيد) : أنا الذى أريدك يا فؤاد افندى .

— خير (يا عم سيد) .

فتنهذ والخرن باد على وجهه :

— (فهمى) افندى فى إجازة !!

— أعلم ذلك .

— إجازة مرضية .

— أعلم أيضا .. وماذا فى ذلك ؟

— أحب أن أقول لك لأنك غال على : لقد ظهر أنه مصلور .

ثم حملت في بعينين لا تريان إلا على قرب ينسحب تحتها أنف كأنما ضغطت أرنبته بمشبك . فانسحبت إلى الداخل صامتة حزينا .
وفي أول الشهر التالي نزلت أمي إلى إدارة المعاشات تمشي على ساقين لا تحملانها . وعادت متأخرة بعد الظهر . ورأيت (فاطمة هانم) آتية معها توصلها . تسندها وهي تصعد السلالم بحنان يستوقف النظر . يد تحت إبطها وذراع عند خصرها من خلف ، وأمي تتهادى كأنما سحرها الموقف وترجوها ألا تخاف عليها فهي بخير والحمد لله .

* * *

« لقد نجح الابن الأكبر لفاطمة هانم في دبلوم التجارة ، وغدا يتوظف في إحدى شركات بنك مصر أو على الأقل في (العوايد) بمسعى رجل في طبية الأستاذ « الجمال » يعرف حال الأسرة ... »
هذا ما قالته أمي وهي تضع في (السبت) الكبير عدة زجاجات من الشربات وعدة أقماع من السكر وعشرين حبة من بواكير المانجو . وكانت (بدرية) تنظر إلى الفستان الذي لبسته في المرأة . و (سميرة) تبتجج لأنها ستبقى في البيت . أما أنا فقد كان عندي عمل إضافي بعد الظهر لزحمة الإدارة بكثير من الاستمارات . وركبتا القطار قبل وهبطنا إلى العاصمة . وتركت (سميرة) في البيت وانصرفت أنا الآخر .

كان الموظفون في هذا المساء يتحدثون عن الحال التي آل إليها (فهمي) فلم يبق الخبر سرا مكتوما وتحدثوا بعد ذلك عن الزواج وكيف أنه حصن . فلو كان هذا الشاب مؤهلا لما استنزفته النساء . ونظر إلى أكبرهم سنا بزواية عينه وقال وعلى وجهه دلائل استخفاف :

— احذر أن تعملها يا فؤاد !

فضحك الباقون . وقعت ضحكاتهم على صدورهم أو بين أكفهم أو في ثنايا الاستمارات والدوسيهات ... فأحسست أنسى جرحتي . ورجحت أن (فهمي) قص عليهم قصة المومس ، فثرت لكرامتي ثم سألت في غضب ذلك الذي فتح باب الكلام :

— ماذا تقصد ؟

فأجاب ملطفاً من الحدة :

— أقصد أنه من الخير لك أن تتزوج لتحفظ نصف ... نصف ...

آه ...

وعادت الضحكات فعاد غضبي وأخذت أجمع أوراقى لأنصرف . ولما رأى الباقون ما آل إليه الموقف لموا أطراف الموضوع حتى استحال إلى جد خالص . وقال أكبرهم سنا وبوقار مصطنع :

— ليس في الأمر ما يجرح الكرامة يا بني العزيز ، لا تحاول أن تخلق إشكالا . أنت شاب هادئ ... إننا حقيقة ننصحك بالزواج .

وظلل الحجرة صمت قلق حتى انصرفنا ، وأخذت وأنا في القطار أفكر في أمر الزواج مادام هو أيسر سبيل للحصول على امرأة . لكنني وجدته مطلباً بعيد المنال .

ودخلت على الأسرة بوجه منطفيء يبقايا الغضب وآثار الهم ادعيت المرض حين استوضحتني أمي سبب ما لي . على أنها نسيت ذلك بعد قليل وأخذت تحدثني عن شئون (فاطمة هاتم) .

سمعتها تصف ابن الأرملة بأوصاف جديدة : « علامات الرجولة بادية عليه اليوم » . كل شيء يتغير حتماً . هل تذكر (صلاح) ابن

حالتك ؟ كان أخيب طالب ثم صار أنصح تاجر ؟ وهناك أطفال يولدون
في حجم المفاتيح ثم يصيرون شبانا ، وفتيان يشرحون الصدور . كل شيء
يتغير ... آه

وتهدت وتمددت وطلبت كوبا من عصير الليمون ثم أسبلت عينيها
كأنها تفكر ...

إن الأمر الوحيد الذى يشغلها هو أمر بنتها (بلدية) ... فأنا رجل
أملك أن أدير شئون حياتي و (سميرة) جميلة تخطف العين بصفائها كما
تفعل اللؤلؤة ، فضلا عن أنها موفقة في دراستها ففى جيبها مفتاح لباين .
وقد حدثتني أمي في عدة مناسبات أن الواجب الأكبر في حياتها ينحصر في
مطالب بنتها الكبرى . على أننى أصبحت بعد سنوات من حياتي العملية
كأننى آلة . شيء مصمت يجمع ويطرح ويضرب ويقسم ويأكل ويشرب
وينام . ويفكر في حدود (أبونيه) القطار والملايس ووجوه من حوله في
الديوان . وعقب ذلك الإحساس دب الملل إلى وجودي فشعرت كأننى
أدور وأنا معصوب العينين كالثور في الساقية .

وكتمت تدمرى عن أمي وكانت ملاعبي غير الفصيحة سنداً لي فيما
أفعل . غير أن فراستها كانت تكشفني في بعض الليالي خصوصا عندما
يصفو لنا الوقت فنتسامر . عندئذ تنطلق روحها العظيمة التي أحبها
وأخافها . فتحدثني بأحاديث تعلم نكران الذات وتقسم مملكة الوجود
إلى قسمين : سماوى تريح فيه التجارة ، وأرضى يسكنه الأنانيون .

وكان (فهمي) قريبا منا ... في (حلوان) فكنت أذهب إليه
لأزوره وأحمل من أخباره كثيرا إلى إخواني .

كنت أحسده في مرضه كما كنت أحسده في صحته . جاءت إحدى صديقاته تعود وفي عينيها دمة وفي قلبها لوعة . وابتسم لها وهو واقف وظهره نحو الشباك ابتسامة عريضة :

— أوه ... حين نراكن ننسى حتما أننا مرضى !؟

وضحك من صدره الأجوف وهو يضغط كفها بين كفيه وكنت جالسا على مقربة من النافذة أستطيع أن أرى الفضاء فتركت عيني تسبحان فيه . ولما عدت فنظرت رأيت روحه تتأجج في عيني . نفس لا تنهزم .

وانطلق (فهمي) عندما دخلت صديقتي يتحدث عما يضيع به الوقت في المصححة ، إنه يقرأ ويسمع الذين يريدون . وينظم حفلات سمر ويرقص ويغنى . ومن بين رنات الضحك كان السعال يتصاعد في تتابع شبه متفق عليه كتتابع نقيق الضفادع . وكلهم هناك يدورون حوله ويسألونه ويلتمسون عنده التسلية .

وتذكرت ذلك كله وأنا أخوض الحدايق في طريقي إلى مسكننا فاحتقرت الطينة التي خلقت منها وأنا أضع حذائي على حفنة سماد سقطت في الممشى . كلانا يمثل الطرفين (فهمي) للتطرف وأنا للجمود . فلو أن شابا ما وقف في منتصف الطريق بيني وبينه لكان شيئا عظيما . وفي اليوم التالي وقعت تجربة جديدة .

ذهبت وقت العصر قبل رجوعي من الإدارة إلى منزل (فاطمة هانم) بتكليف من أمي . وكان ذلك للمرة الأولى . حملت إليها نقودا طلبتها لحاجة . كانوا في حارة ضيقة يكاد السكان يتصافحون فيها من النوافذ إن بذلوا شيئا من الجهد . وقلت في نفسي وأنا أضغط جرس الباب شيئا غريبا :

— لو فرضنا أنني وجدت (زينب) وحدها وأنها سمحت لي بالدخول وأنها فتحت باب الغزل فماذا يكون موقفى منها ؟
وتذكرت المصدور الذى مازال حبيب النساء ، يخلم بالشفاء ويرقص ويغنى فى الليل ليعود من جديد فيشاطرهن الحياة السعيدة .
ودق قلبى بعنف وحنق مع دقات الجرس . كان يطن كأنه فى فراغ ويوحى إلى بأن المكان ليس فيه من يرد . وكدت أياس وأنصرف .
وحين استدرت راجعا صر المصراع وانفتح عن وجه (زينب) رأسها ملفوف بمنشفة لكن شعرها المبلول كان باديا من خلالها .
وأحسست أن للماء سحرا إذا مس الوجوه النظرة . كان فى قسماتها نداء غير موجه لأحد ويقصد به كل أحد . وسلمت على بكف فيها رطوبة الحمام وأشارت إلى حجرة قريبة جدا من باب الدخول فلا يكاد الضيف يخطو خطوة فى الصالة .

وكنت موقنا أنها وحدها وإلا ما فتحت وهى على هذه الحالة . وفى خمس دقائق تماما أو تزيد قليلا كنت أنا أفتحص المكان وكانت هى تلبس ثيابها . ثم رجعت تحمل فنجالا من الشاى كأنه كان جاهزا . منحنية به نحو الأمام تحمله فى رشاقة تدهش المحروم .

ولم يسعنى أن أتصور إلا أنها زوجتى . وأنها لم تستطع أن تدخل الحمام صباحا بعد انصرافى فتأخرت ريثما تتم مطالب البيت . وهأنذا قد عدت فوجدتها تغتسل !! وهى تضع الشاى أمامى على المنضدة فى تلطف التى عشقت زوجها . وخيل إلى أن فى وسعى أن أشكرها بقبلة . أو أن أطلب منها قطعة من السكر . أو أن أشرب من موضع فمها على الفنجال أو أن أصنع ما أشاء !! وتدخل فورا فى الموقف المخدر الناعس امرأتان قويتان

تصلح كل واحدة منهما على انفراد أن تعيد إليه وعيه الكامل . إحداهما
أمى والأخرى تلك التى قالت لى ذات مساء :

— « توتو .. ألا ترانى ؟! » ثم جعلت تتأوه كأنها مجروحة ..

وفطنت إلى (زينب) وهى تؤنسنى بابتسامة :

— أنت فى بيتك .. لم أتعب فى شىء فالواهور كان مشعلا بطبيعة

الحال ... ذهبت أمى مع أخى إلى بعض ذوى الشأن ... آه ... نرجو أن

يلتحق بوظيفة قريبا .. هى هى .. كل شىء له أوان ... أليس كذلك؟! ...

ثم نهضت تتلوى وفى عينها نظرة سقيمة ، وفتحت الباب للولد

الأصغر . دخل وسلم . وجلس على أحد الكراسى فى بنطلة قصيرة تبدو

منه أفخاذ سمينة . وكانت الجروح والكدمات التى على ركبتيه وساقه

والخدوش التى فى وجهه موضع الحديث بيننا :

— هل كنت شقيا فى صغرك هكذا يا أستاذ فؤاد ؟

(فتهللت) :

— كلا . ولا فى كبرى !

فقالت وكأنها تتحسر على شىء فاتنى :

— ولا فى كبرك ؟! ... وهل يظهر البلح إلا فى موسم البلح ؟! ...

فقدمت إليها الأمانة التى أرسلتها أمى . فى صمت . ولم أستمع جيدا

إلى كلمات شكرها لأننى كنت حزينا .

وحين وطلعت عتبة الباب من الخارج كانت عربة البلح لا تزال واقفة ،

حوها نسوة وصبيان . وصوت البائع يلعلع كلما فرغ من الوزن وألقى

الميزان ذى السلاسل فى ضجة مهبطنة :

— « يا حيانى ... يا رطب » !!



خرجت هذا المساء باكرا من الإدارة وأنا أشعر بالسأم . نخليل إلى أن
قطار الضاحية سينقلني إلى المنفى . والدنيا شتاء والليل في الضواحي
طويل والجبل ينام منذ الغروب . وتهب ريح فتقفل النوافذ . ولا يرى
الضوء إلا من مصابيح الشارع الواسع المكنوس ومن خلف المصاريح
الخشبية . وعندئذ تبرز الأشجار وحدها في الطرقات والحديقة . وتأوى
(بدرية) إلى فراشها باكرا من مجهود النهار . وتسهر (سميرة) تذاكر .
وتجلس أمي فتتلهى بأى عمل أو حديث ثم لا تلبث أن يثقل رأسها بالنوم
كأنها شربت فتنهض لترقد . وأبقى وحدى أسامر الليل وأستمع إلى
نفسى . والليالى طويلة ، والنهار متشابه . والحركات الرتيبة حتى ولو
كانت موسيقا تقتل في الأعصاب توثب اليقظة .

ولما خرجت من الإدارة صممت على ألا أعود إلى البيت . سأذهب
إلى جهنم ، أريد أن أغير اتجاهى لبضعة أيام حتى ولو إلى مستشفى .

وحجزنى القطار الذاهب إلى حلوان وأنا على وشك عبور (المزلقان) إلى ميدان (لاطو غلى) فوجدتنى بحركة غير إرادية أبصق على آخر عربة فيه وهتفت فى نفسى « مع السلامة ! »
وهناك فى الميدان وقفت أحلق فى كل شىء وفى وجه هذا التمثال المغفل . وسألت عما عمله صاحبه ثم انصرفت .

واتخذت طريقا مضادا للمحطة التى أركب منها عادة حتى آمن على نفسى من العودة . سرت أفكر . وفجأة وثب إلى ذهنى خاطر . لماذا لا أذهب إلى بيت (فاطمة هاتم) فأسأل ... عن من ؟ ... هناك أشياء كثيرة : هل توظف ابنها ؟ هل هى فى صحة جيدة ؟ إننا لم نرها منذ أسبوع كامل . هل تحتاج إلى معونة ما ؟ إن أمى مثل أختها وأحسن من أختها !!

لكنى لم أكن أحمل تصرىحا بالزيارة .
وضحكت من أنفى . هل من الضرورى أن يعمل الرجال التصاريخ ؟ وشتمت ناسا كثيرين فى سرى ، أنت تعرف بعضهم . لماذا لا أذهب إلى حيث أشاء ؟! ولماذا أقدم تفسيراً لكل عمل وتقريراً عن كل وقت ؟ كنت معبأ بطاقة شريرة ينبغى لها أن تفرغ . وهذه الطاقة يجب أن يفسح لها الطريق بشكل ما . فسرت أسرع الخطى إلى هناك .

وحين صعدت السلم الملتوى ورأيت مصباح جاز صغيراً معلقاً فى ركنه لينير الطريق تذكرت الشرخ الموجود فى بيتنا . إنه يقع من سلمنا موقع المصباح من هذا السلم . ثم أعرضت عن الفكرة ودققت الجرس . وشهقت (فاطمة هاتم) لأنها هى التى فتحت لى وسارت أمامى لتفتح حجرة الضيوف . وكانت أردافها الملقوفة تهتز بلين مع صوتها اللين

وحركتها الملساء . ترحيب أموى ناعم يجعل المرء يفكر فى تغيير أمه خصوصا لشاب مثلى .

وكان الخير عميما فى هذه الليلة ، فقد دخلت بيتهم مع الأفراح فابن الأرملة سيستلم عمله فى بنك مصر وقد ذهب ليعبر عن فرحه فى سهرة فى السينما مع بعض أصدقائه . وكان الولد الثانى فى الداخل يرفع صوته فى قطعة من الشعر . أما (زينب) فلم تكن دخلت بعد ...

ثم جاءت تحمل صينية عليها برتقال وسكاكين وفوط مخططة على هيئة مربعات . والدفع ينبعث من كل ما فيها فى هذه الليلة الباردة .

وقدمت لى كل منهما برتقالة . بدأت الأم ثم ثنت (زينب) . ثم قدمت لى الفتاة طرف فوطة مبلولة ومعها ابتسامة فمسحت يدى ولم تغادر الأم مكانها فشاركها الجلوس . وتناولنا الحياة من كل نواحيها إلا ما يثير ريبتي فى أنهم يحبوننى لغير وجه الله . وأخيرا فطنت على طريقة . لم تكن فى الخارج بل كانت فى نفسى حين تذكرت أننى مكلف أن أقدم حسابا عن الوقت . وكان الوقت يمر بسرعة فقد انقضت ساعتان ونحن جلوس . هل القوة التى تدفع (الوقت) فى مجرى الزمن تتبع من داخلنا نحن ؟! . واستأذنت لأنصرف . وحفت لى المراتان تودعائى فى عنوبة . ومررت من بينهما لأخرج من الباب وأنا أشعر بلذة منغصة . ولم ينغلق المصراع خلفي إلا بعد أن هبطت عشرين درجة . وألقيت نظرة على المصباح وكان يغمر بعينه . ولم يكن الهواء فى الشارع جميلا ولا منعشا كما تخيلت .

كانت الساعة قد دخلت على التاسعة وفى السماء سحب يحجب النجوم والليل كأنه متدثر من البرد . وأحسست بالمسئولية فحشت

الخطى نحو محطة السكة الحديد وكان القطار آهلا بالركاب فالتفت العنبر
لنفسى :

— كل هؤلاء عائدون إلى البيوت . ولا يزال غيرهم في الخارج .
وحين نبج الكلب في الحديقة وأنا أعبر فضاءها إلى درجات السلامك
انفتح الباب وظهر قوام أمى فى فتحته تحت النور المغلق فى الصالة . وكان
القلق باديا على وجهها بشكل مزعج حتى أننى رثيت لها وتضايقت منها :
— مساء الخير يا ماما .

فردت بعسر كأنها تحمل شيئا ثقيلا :

— مساء الخير ... كل هذا الوقت فى العمل ؟

ففتحت لى باب الكذب فوقفت مترددا . وكنا فى هذه اللحظة قد
دخلنا حجرى وأشعلت نورها فانسكب قويا على وجهينا . وخملقت فى
بعينين فاحصتين . وهى جالسة فى انتظار الإجابة وكفأها متلاصقتان
موضوعتان فى حجرها .

قلت متلجلجا :

— فى العمل ؟ ... لا والله ... قلت فى نفسى هذا المساء ... تنزه
قليلا ...

فأجابت بموافقة أدنى إلى المخالفة :

— لا بأس .. هل نقيد أبناءنا كما يقيد الدجاج ؟! ... فقط ... قلقت
عليك .

وأحسست أن بوادى غضب تلعب برأسى كبوادى السكر فقلت وأنا
أشد ييجامتى من على الشماعة :

— أنا لم أعد صغيرا لتلقى على . إن (سميرة) نفسها لم تعد صغيرة !

ولم أتبين — وإن كان ذلك واقعا — أن كلماتي كانت كرجم
الحجارة . كان وجهي بعيدا عن وجهها فشجعني ذلك على ما فعلت .
ولما التقى بصرنا رأيت العجب في عينيها مخلوطا ببوارد دموع : فندمت .
أتدري علام ندمت ؟! على أنني نسفت القنطرة التي سأعبر عليها ،
فليس في الإمكان بعد الذي حدث أن أقول لأمي : إنني كنت في بيت
(فاطمة هاتم) فوجدت نفسي مضطرا إلى الكذب ، قلت في ملاينة
مفاجئة :

— آسف يا ماما . من حقدك أن تقلقي على ولو من حوادث
الطريق .. آ .. أنا ...

قالت وهي تنظر في حجرها لكن بتأثر وحنق على الفطرة مثلا تقول
الأمهات في المآزق :

« قلبي على ولدي انفطر ، وقلب ولدي على حجر » ... لا تخزن
يا بني . أعاهدك على ألا أعود . إن شئت .
وهمت أن أعترف وليكن ما يكون . لكنها قامت لتجهز عشائي .
وجلس آكل وحدي فقد زعمت أنها تعشت . وكانت (بدرية) نائمة
منذ وقت باكر من أثر مجهود النهار . أما (سميرة) فقد كانت منكفئة على
الكتاب .

* * *

وفي الصباح رأيت تساؤلا وقحا في عين (بدرية) ، وكلاما يشبه
الوشاية بظنون أسي كان يغالط ابتسامه (سميرة) .
وظللت طول النهار شاردا أجمع بدل الطرح وأضرب بدل القسمة .
والشجار من حولي لا ينقطع بين اثنين من الزملاء ، نهار كله دخان !

ولما عدت وقت الظهر لم أجد أمى فى البيت . وحبرتنى (بدرية) وهى تضع الغداء أنهاربما تتأخر فهناك طلبات راحت تقضيها . وحدثتنى نفسى أنها ستمر على فاطمة هانم ، إن لم يكن ذلك حتماً ففى أغلب الظن . وتغديت ونمت . واستيقظت وقت العصر والشمس دافئة تذهب الجبل المبلول وتهب الضاحية حياة دفيئة . وسألت عن أمى فعلمت أنها فوق . كانت تطعم الدجاج وتفحص الأرناب فى الحظيرة التى أقمنها فى الركن . فصعدت إليها ولم أشأ أن أنتظر نزولها .

لعلها لم تسمع وقع أقدامى لأننى كنت أمشى بخفة . ولما اقتربت منها سمعتها تدندن بصوت حزين وكان ظهرها إلى ناحية السلم فأردت أن أنبها بطريقة مرحة ضاحكا قبل أن ألقى إليها التحية :

— الله ؟! .. أغنين يا ماما ؟! هل تعرفين أن صوتك جميل ؟!

فسكتت وألقت إلى من فوق كتفها نظرة وقالت باختصار :

— يمكن !! ...

فانظفأ المرح فى نفسى ووقفت حائرا كمن ضل الطريق . وانقضت فترة رأيت فيها تطاحن الدجاج وانزواء الأرناب وسكون أمى الذى أعرفه ويعرفه الناس فى الطبيعة باسم السكون الذى يسبق العاصفة .

— هل أنت مريضة يا ماما ؟!

قلت ذلك برفق من يطلب الغفران — فى صمت — عن ذنب متفق عليه دون أن يتعرض أحد الطرفين لإثارة الموضوع . فأجابت بنفس الإجابة وباختصار :

— يمكن !!

فتركها ومشيت نحو السور إلى حيث ألقيت نظرة على الدنيا : طريق
المرصد وكهوف الجبل والكلب المنزوى عند شجرة الخروع وشجرة
البرتقال المنفوضة من الثمر . وقبل أن تهم بالنزول إلى تحت اعترضت
طريقها . وقلت لها بقوة من يصر على تصفية حساب لكن الابتسامة
كانت على وجهي :

— لماذا أنت غاضبة ؟

— أنا ؟!

— نعم !

فقلت بهلواء شديد وبعد فترة صمت :

— لا شيء إلا أنك أوقعتني في إحراج . كان يجب أن أحمل إليها بعض
الهدايا بمناسبة توظيف ابنها . فقد ظنت أنك بلغتني وأنتى ذهبت أهنيء .
(وعندئذ كتمت عنها ما في نفسي ثم نظرت إلى نظرة حدث بها بعيدا عنها
على حين ظلت تقول) :

— لماذا تكذب على أملك ... هل تظن أنني أعترض سبيل
رغباتك ؟! ... دخلنا يكفيننا يا بنى العزيز . على أنك لم تبدل بعد
تضحية في سبيل أحد !

وظلمت صامتا لا أتكلم والأشعة الحمراء على وجهي ترسم الخجل
مزدوجا . فلما رأت أن خصمها لا يقاوم نبع من قلبها الخنان :
— يخيل إلى أنك الآن تتمنى بينك وبين نفسك أن ... أموت .
فاغرورقت عيناى بالدموع وقلت بصوت مخنوق :
— إلى هذه الدرجة ؟! أبدا والله العظيم !!

وانتحيث إلى ركن السطوح فتركتني ونزلت . وظللت واقفا حيث كنت حتى سحبت الشمس أشعتها من على الرمال وهبط الظلام وبرد الجو .

وحددت هذه الحادثة الاتجاه النفسى لأمى فأصبحت جازما بأنها تخاف على من (زينب) . وأنها تريد المصاهرة على وجه آخر . فأفقت وأخذت أترقب سير العلاقة بين الأرملةين بحرص شديد .

إن (فاطمة هانم) تلبو ساذجة وأمى شديدة العمق ، لكن علاقة أخرى بدأت تجدد بين أمى وأحدى جاراتها فى البيت الملاصق . وكانت العلاقة القديمة قائمة كأنها طلل ومن خلال الهدايا التى كنا نتبادلها مع الست (فتحية) بدا التصميم الجديد ، فقد ألقت أمى شبكتها فى بحيرة أخرى .



٩

رأيت على الفطور الصبح طبقا من البلية بالبن والسكر والزبدة
وجوز الهند . ولما سألت عن مصدر هذه الخيرات عرفت أنها من عند
(فتحية) وكانت شواغل شتى تلعب برأسي وأنا في القطار . وحين
ذهبت إلى الإدارة كان الموظفون يتكلمون عن قرب عودة (فهمي) إلى
العمل .

وصوروا الحادث على أنه معجزة . فرد أكبرهم سنا وهو ينظف القلم
بقطعة من النشاف : « شباب ... يا افندم الشباب هو الذى صنع
المعجزة لا الطب ولا الدواء . » ثم انكب على الورق يجمع وي طرح .
وقال أحد الشبان ممن يتمنون الشر للناس بلا مبرر شخصى ولا مبرر
عام قال وهو يشير إلى النافذة : إنه على كل حال مثل هذا اللوح من
الرجاج ... مشروخ ومتاسك . فهل ينجو من ريح الشتاء ؟

ف نظرت إليه باشمزاز وصمت موقناً أن (فهمى) لن يموت ببساطة .
فهو يجدد بالمرح خلاليه كل مساء وصباح ، مشدوداً إلى (الحياة)
بسلسلة (الحب) ثم تأوهت ... (آه ...) !!
وجاءنى من أقصى الحجرة صوت يقول فى دعابة : « سلامتك
يا بطل !! » وانفتح الباب بخنجر وأطل منه وجه « عم سيد » ، ثعلبياً
خبيثاً على ملامحه بعض من الأخبار . وأشار إلى برأسه فخرجت من
المكتب .

— ناس بانتظارك فى الصالة الخارجية يا أستاذ فؤاد !!

— من هم يا « عم سيد » ؟

— لم يخبرونى بأسمائهم .

كانت هى هى بلحمها ودمها وشفقتها التى تشبه حبة الكريز إذا
ما ارتخت فى ابتسامة . عليها ثوب ريبعى أبيض بأزهار زرقاء .

ولم تكن (زينب) وحدها فقد كانت معها أمها ، فى مسوحها
السود : معطف الحرير فوق الفستان . والطرحة ملفوفة على وجهها
التركى . وبقية الكحل فى أهدابها المهوشة . وابتسامة حنون مغبوبة
شاكية تتخيل على شفقتها .

والتفت خلفى بحركة لا إرادية كأن شخصاً يرانى !! ثم استحييت من
نفسى وأقدمت وقلت بلهجة لم تخل من الهزات :

— خيراً يا خالتى ؟

فردت بلهجة متكسرة وهى تهز رأسها فأشعرتنى أن القصة طويلة :
— هل نتكلم هنا ؟ إن كان عندك وقت فسر معنا عدة دقائق .

وخرجنا . أنا أمامهما وهما ورائي . واتجهنا إلى ميدان (لاظو غلي) .
 وحين استوى بنا السير رأيت نفسي بين المرأتين . وقبل أن تفتح السيدة
 كلاما فكرت بسرعة موازنا بين صرامة السيف ولين الأفعى .
 إن فاطمة هائم تبدو بلهاء تستطيع أن تصل إلى ما تريد . تسرق الروح
 كما يفعل الترف وتسلب العقل كما تفعل الخمر . أما أُمي فإنها قاطعة كحد
 السيف .

ولما وصلنا إلى (المزلقان) حجزنا القطار الذاهب إلى (حلوان)
 فنظرت إليه كأنه يعرف . وما لبثت (فاطمة هائم) أن فتحت الموضوع
 فتكلمت ونحن نضرب في الطرقات كالعشاق لا يجدون ما يلجأون إليه :
 — ألم تخبرك ماما عن الذي حدث بيننا أخيرا ؟
 — لا . مطلقا !!

فبرق الدمع عند أهدابها كأنها تذكرت مأساة . ثم سارت إلى جوارى
 حتى تلامس كتفانا وأنشأت تحكي :

« لقد تغيرت (ماما) فجأة ... لست أعرف السبب . كان ذلك
 بعد زيارتك الأخيرة لنا . كانت أختي . إنني مائلة البخت ، كنت أشكو
 لها كل ما يؤلمني حتى سوء تصرفات ابنتنا الخائب ليته لم يتوظف . وفجأة
 أعرضت أملك عني !! » .

« شعرت أن هناك ذنبا لم تصارحني به فاعتذرت إليها لكنها لم تغفره
 حتى اليوم الذي نلتقي فيه في المالية لا تفعل أكثر من أن تصافحني
 وتنصوف » .

كنا أختين !! .. (وبكت) .

وأمسكت (زينب) كفى عدة مرات وهى تعلق على الحديث بطريقة لا تحدد المسؤولية واصطلم ذراعها فى جنبى واصطلم كتفى فى صدرها . آه ... ووجدتني مضطرا أن أضع كفى على ظهرها ونحن نعب شارعا مزحوما وكانت أمها قد تسرعت وعبرت قبلنا . ولمست الحياة عن قرب فيها . أشبه بالذى ينظر إلى الثمار من خلال السور . وأحسست حيال أمى بضغينة مشوبة بالرئاء وإن لم أحترم فى قرارة نفسى الطريقة التى سلكتها (فاطمة هائم) معى بمحاولتها الدخول من الباب الخلفى . على أننى شعرت بتجاوب حيال (زينب) . وهذا ولا شك لم يقع بين (بدرية) وبين ابن (فاطمة هائم) على الرغم من أن أمى صحبتها إلى بيتهم يوما ما . وامتد بنا المسير وامتد بنا الحديث . وبدأ هذا العمل غير الواضح يتخذ فى نفسى وضعا عاديا شائعا مألوفا . وكانت المرأة الكبيرة تتدفق بالحنان وهى تتكلم حتى تخيلت أننى ابنها . وعلى الجانب الآخر كانت الفتاة تناوشنى برفق وحرص ونعومة . وكان على أن أعلن قارى لأشهما طالبانى به عدة مرات . فأجبت ونحن واقفون عند مفترق طرق :

— كان على أمى أن تشرح لكم وجهة نظرها . لكن ... لا تخزنى يا خالتي ... ولو من أجل خاطرى أنا .

فلمعت على وجهيهما ابتسامة من نوع واحد . تحمل معنى من ظفر فجأة بشيء غير متوقع . وقالت الأم :

— هل تريد والدتك أن تقطع العلاقة بيننا فتحرمنا أن نراك !؟

ونظرت إلى (زينب) فإذا بها مطرقة تشير أهدابها إلى خدها الوردى فلم أجب إلا بقول :

— (تتعدل) . وصافحتهما وانصرفت .

ولما رجعت إلى الإدارة أحسست بضيق شديد . وكان الزملاء
يثرثرون وعادوا ثانيا إلى موضوع (فهمى) فقرروا أن أمره لن يصلح
إلا بالزواج .

وقال أحدهم :

— بالعكس . ليس الزواج من مصلحته .

— بالعكس . بل هو أصلح له لأنه لن يكف عن دائه القديم .

(وغمز بعينه) .

— ليسكت المرضى حتى يتزوج الأصحاء .

وأحسست أنهم يعنوننى وأنهم يعرفون حقيقة الود الذى شددت إليه
فقلت دون أن أشعر :

— كل إنسان أدرى بمصلحته .

فقال أكبرهم سنا وهو ينظر فى اتجاه آخر :

— أنت اليوم عصى يا سيد فؤاد . مالك ؟ هل لطمك (الحب)

على خدك الأيمن فأدركت له خدك الأيسر ؟ ... يا بنى ...

فوقعت ضحكاتهم على صدورهم وعلى الاستعارات واللوسيات

لكننى لم أعلق بشيء .

قلت فى نفسى وأنا أنزل ظهرا إلى رصيف المحطة : لقد نسيت !! كان

يجب أن أسأل (فاطمة هايم) عما إذا كنت فى حل أن أخبر أمى بهذا اللقاء

والعتاب القائم فى نفسها ونفس بنتها !

وكففت عن المسير على مقربة من موقف (الخطور) وكان أحد

السائقين جالسا على الكرسي ورأسه مثقل بالنوم وعيناه مغمضتان فى

هناوة بال أو على الأقل لم يكن في رأسه مشكلة . ولم أجد حلا مناسباً . ولم
أرسم خطة معينة . بل تركت الظروف تملئ على ما تشاء وسرت بعد أن
أفقت على عطسة حصان .

وكانت أمى — على الغداء — مرحلة قليلا تحاول أن تذكر تفاصيل
رؤيا رأتها في الليل بيضاء مبشرة . و (بلدية) تشكو مغصا حادا جالسة
معرضة عن الأكل و (سميرة) كأنها زهرة تخشى أن تلوث شفتيها وهي
تأكل ، وتبظر أحيانا إلى صدرها الباهد من فتحة الثوب .

واختليت بأمى بعد الغداء وكنت في هذا اليوم نادر الشجاعة .
وسألتها لأجس المخاضة قبل أن أدلف إلى الماء :

— (فاطمة هانم) لا تأتي إلينا كثيرا ... هل هي مريضة ؟

فضحكت محاولة أن تظهر بمظهر الأذكاء . وجلسنا على الكنبه
تفصل بيننا المساند وكانت أمى في هدوء صاحب الحق الواثق من عدالة
القاضي فأخذت تقول :

— إننى سقيمة من الفهم . إن هذه المرأة واسعة الحيلة . ظننت أنها
ستعطينا فإذا بها جاءت لتأخذ منا !! هل أنت فاهم ؟
— فاهم !! (وأومات برأسى) .

— لذلك رأيت من المصلحة أن أبتعد عنها . إن بيتنا لا يتحمل هزة
واحده يا فؤاد وأنت يا بنى تعرف كل شيء .

ثم بدا عليها التأثر واعتراها ضعف النساء ونظرت باسترحام يخالطه
حب وثقة . فاهتزت لذلك هزة شديدة حتى كدت أبكى . ولم أجد
مجالا لأقول شيئا عن حوادث اليوم ، ولم أشعر بندم كبير لأن الظروف هي
التي تجبرنى أن أكذب على أمى .

— لا تخاف يا ماما !!

وكان صوتي مخنوقا وقواى خائفة . لكن الحديث انقطع بيننا على أثر دخول (بدرية) لتقول بصوت هامس كأنه يعمل سرا .
— ماما . (الست فتحية) تعبر الباب الخارجى فى طريقها إلينا .
وفرت تطلقاها ثم قامت أمى بعد أن ألقت على نظرة كان لها مدلولها ...

* * *

وفى المساء مالت أمى تقول :

— لقد اتفقنا يا فؤاد .

وكان على وجهها دلائل ظفر غير كبير . فسألها متلهفا :

— علام يا ماما ؟

— على زواج ... سميرة !

— سميرة ؟!

— نعم . سميرة !!

وأكدت قولها بعينيها ، ففهمت لماذا بدت الفرحه غير كبيرة .

ونظرت فى كفها وهمست :

— لم يكن هناك مفر أبدا . حاولت أن أجعلهم يعدون بالترتيب لكنهم

أصروا على جعل (ثلاثة) قبل (اثنين) .

— هيه ...

— ونمت ليلتذ مثقلة بالفكر فإذا أبوك يزورنى ويقول لى :

« لا تكونى غنيدة يا أم فؤاد !! ... فى حياى وبعد موتى ؟! ...

ما هذا ؟! فاستيقظت أنتحب !

— هيه ...

— رشدى !؟

فقال ولم تفارقها النبرة الحزينة :

— رشدى . إنه مدرس على أبواب المستقبل . لا يقيم في بلد واحد ،
لكن ... مع السلامة . (وطوحت كفها كأنها تذب بعوضا وعلى
وجهها علامة تعب) .

— تتكلمين بخزن !! ألا تشعرين يا ماما أن عقبة ما ستتحى عن

الطريق ؟!

فتنهت :

— تمام . لكن (بلدية) تشغل بالى باستمرار . لا تلمنى يا بنى !
ومبشت الحياة فى بيتنا بطريقة تدعو إلى التأمل . انقطعت (سميرة)
عن الدراسة وأقامت مع أختها طول الوقت . ونشب عداء خفى بين
الفتاتين . كانت (بلدية) تنظر إلى أختها على أنها مغتصبة سلبتها حقا
طبيعيا منحتها الحياة إياه . والصغرى تعمل فى صبر صامت وتبكي عندما
تدرك أنه لا مخرج لها . وألقى عبء البيت عليها عقابا لها !! نتيجة
إضراب (بلدية) عن العمل وعدم تعرض أمى لها مدفوعة بسبيين :
العطف والمدايرة .

ثم تفاقم المدايرة حتى أصبحت شبه تحيز ، لأن الكبرى كان تلبس
وتترين ثم تنتحى ناحية بعيدة عن أختها فإذا أمى — القاطعة كالسيف فى
معاملتها لى — تنجح إلى حيث تنجح الكبرى فتحس الأخرى بعزلة
وصمت فتبكي وحدها .

وفي أحد أيام الجمع جاء العريس يتغدى عندنا . وطبعي أن تقوم في البيت استعدادات وتطبخ فيه أصناف غير مألوفة حتى الكشك بالدجاج . ولبست (بلدية) منذ الصباح ملابس نظيفة وانتحت ناحية بعيدة من البيت وادعت أن آلاما حادة تفرى كليتها وأنها لا تستطيع إلا أن تستلقى على الفراش . أما الصغيرة فقد كانت أشبه بالخدام الحسنة . منذ مطلع الصبح وهى تكنس وتمسح بصحة رقيقة وكفين مثل بروة الصابون وحركات لطيفة مثل حركة بنات المدارس في حصص الألعاب .

ورأيت المنظر بنفسى ، فأثارتى الوضع . فاستأذنت أمى في أن أتصرف ، لكنها لم تسمح لى ونحتى عن الفتاة بنظرة جانبية كأنها خنجر . ثم أمسكت ذراعها ودخلت بها إحدى الحجرات . وبعد ربع ساعة خرجت البنت دامعة العين ، والأم وعلى وجهها غضب . لكنها بعد ذلك خلعت ثيابها النظيفة ودخلت المطبخ .

أدركت أن فى الدنيا ناسا يحملون فى كيانهم مؤهلاتهم التى تساعد الغير على أن يظلمهم . وقد كانت (سميرة) واحدة من هؤلاء .

كانت تقول لى بعينها النديتين اللطيفتين : لا أريد أن أتزوج . فليتك تساعدنى . أو تقول أحيانا أخرى : متى أخرج من هذا البيت فأنا عاجزة عن الدفاع غير قادرة على المتاعب .

وكدت أشعر أنها غريبة ليست بنت أوى . وانتقل هذا الإحساس إلى أمى التى غلبتها الأوضاع وقهرتها الحوادث . فبدلت جهدا كبيرا فى إنهاء المهمة والفراغ من التجهيز .

وكانت تغيب كثيرا عن البيت وترجع محملة بالبضاعة دائخة شاحبة الوجه . ورأيتها مرة . قابلتها وهي نازلة من القطار تعمل تحت إبطها حاجات ثقيلة . نقطة عرق معلقة على ذقنها ، و تراب الجبل راسب فوق كتفها وفي مشيتها عرج خفيف فخطفت منها الأشياء وعدت معها إلى البيت والدموع في مقلتي . وارتمت على الفراش ونادت (بدرية) لتدلك أطرافها لكنها انصرفت في سماجة ، متجاهلة أنها سمعت . أو كأن أختها هي المكلفة بإصلاح هذا لأنها هي السبب !

ولما رأيت شبه فجيعة طافية على ملامح أمي أقسمت ألا يقوم بهذا العمل غيري . ودلكت كفها ثم قبلت إحدهما وشرعت أدلك لها قدميها .

وتبادلنا نظرة حنان . وكان في عينيها استغفار خفي . وفجأة سألتني
سؤالا لأول مرة :

— فؤاد !

— نعم .

— أحب أمك ؟

فقلت مبتسما :

— إلى متى تظلين تطلين الدليل ؟!

فصمتت قليلا ثم قامت فجلست في الفراش وهمت :

— بعد زواج (سميرة) نكون قد قطعنا نصف المرحلة .

— يعنى ؟

— يعنى أنتى أرجو أن أعيش حتى أزوجك .

فدب الفرح إلى قلبي كأنني طفل وعد بلعبة وأعلنت لها في حماسة أنني
مستعد أن أفعل كل شيء من أجلها حتى لو حرمت على الزواج .
فوسعت عينيها وهمست تقول :
— لا تقل هذا . أريد أن أعيش من أجلك .. ولكن ... هب أنك
تزوجت امرأة حسناء فهل تراها قادرة على أن تنسيك أمك ؟
فسألت مستعبدا فرضها :
— وهل ... (لكنني تحولت إلى طريق آخر) ستفعل ؟
— غالبا ما تفعل الزوجات ما قلته لك .
— وهل ... (لكنني تحولت إلى طريق آخر) ستفعل (سميرة) مع
الست (فتحية) نفس الشيء ؟
فضحكت ملء صدرها وقالت وهي تربت على خدي :
— يا لك من ولد ناصح . فؤاد . لقد كبرت !!



١٠

ملأ الضجيج أنحاء الإدارة في هذا اليوم بعودة (فهمي) إلى العمل .
كان على وجهه ندوة الرضيع . نضارة نباتية لا تدل على القوة لكنه كان
وسيمًا على كل حال . وجلس يعكس عن الليالي التي سهرها والآلام التي
كانت تنتشر في كل ركن . فقال له أكبرنا سنا ليخرجه عن هذا المجال :
— دعك من هذا يا حلو واحك لنا عن مغامراتك هناك .

— هناك ؟!

— نعم . ألم يكن هناك ممرضات من النوع الذي نجاء يسأل عنك في
غيابك ؟

ومن خلال عاصفة الضحك أطل وجه (عم سيد) من فتحة الباب
والاهتمام باد على محياه وأشار إلى بسببته فخرجت .

— من يا « عم سيد » ؟

— هم أنفسهم .

— هم أنفسهم !!

ولكننى رأيت (زينب) وحدها .

ونظرت إليها فى سهوم . كنت فى هذه المرحلة فى صف أمى أناصر قضيتها . وحين تظهر القضايا ببوار نجاح يأخذ عدد مناصريها فى التكاثر .

وبدا جمالها ذليلا شيئا ما . ووجهها على مقربة من أذننها شديد الحمرة كأنها صفت بكف . واهتزت أهدابها عجباً من جفاف لقائى فأفقت لنفسى :

— ماذا حدث يا « زينب » ؟

فقالت بلين وطريقة كأنها هزيمة :

— لاشئ . غير أن لقاءك لا يشجعنى على أن أتكله ... هل أنا

محطلة فى مجيئى إليك ؟

وببساطة أوقفتنى موقف المعتذر . وسرنا جنباً إلى جنب وفى نفس الاتجاه ... نحو (لاطموغلى) . واعترض القطار سبلنا ذاهباً إلى (حلوان) . ووقفنا على مقربة من الشريط حتى تمر آخر عرباته . ومن إحدى نوافذها أطل وجه حبيبن كانا واقفين فى النافذة ملتصقين والشاب يقول للفتاة فى أذننها كلمة . فتبادلنا نظرة ونحن نعبّر الشريط . وسألتها ثانياً عن صحة (ماما) لأننى لم أجدها أقول لها ، فإذا بها تنهد معلنة أنها جاءت إلى من أجل (ماما) :

— أنا واثقة أن طلبائى ستقع من نفسك موقعا عزيزا .. هيه ؟

وكننت فى هذه اللحظة أتساءل عما إذا كانت هذه بداية خطة ؟؟ لكنه لم يسعنى إلا أن أجيبها :

— بغير شك .
— كان ممكنا أن أذهب إليك في البيت لأرى خالتى أم فؤاد على الأقل ... لكن ... آه ..
— لا تقطعى الحديث وتتأوهى .
فسألت برقة :
— لماذا لا تبدو هادئا كطبعك . ألا ينبغي أن نكون خيرا من أمهاتنا ؟!
ولم تدع فرصة لأعلق على كلامها بل استطردت وكأنها انفعلت من الموقف :
— إنهن لا يحسن المحافظة على الصداقة . كان عندنا مدرس يقول دائما : « إن الصداقة تحتاج إلى مهارة نادرة لصيانتها . وليست البراعة في أن نخلقها لكن البراعة في أن تستبقها » .
وأحسست أننى حمار .
كيف تستطيع مثل هذه الفتاة أن تقول مثل هذا الكلام ؟ لا بد أنها تستقيه من منابع لا أعرف أماكنها . هناك إذن للمعرفة مدارات جديدة غير الأمهات والمكاتب والزملاء والجرائد اليومية !
ثم همست فى قرارة نفسى : يا لها من زوجة !!
— وهل هذا وقته يا مغفل ؟!
ندت هذه العبارة إلى أذننا فى برهة صمت خيمت علينا ونحن سائران — من فم ميكانيكى كان يرقد تحت سيارة ليصلح جوفها .
وكان صوته مشحونا بالحقن فى الوقت الذى كان زميله فيه يقهقه فى الهواء الطلق . فقد كان يعابه . ثم جددت (زينب) حديثها :

— إن أمي محتاجة إليك .
فأشربت إلى صدرى لأتأكد :
— أنا ؟

— نعم . أنت .
فقلت في نفسي :
— « وأمى كذلك !! » .
ثم رفعت صوتي قائلاً :
— تحت أمركم .

— بما أنك موظف في الصحة ولك صلات بالمستشفيات فهي ترجو
أن تنال معونتك لتدخل قسم الجراحة لأنها محتاجة إلى عملية بسيطة .
ومن انكسار إحدى عينيها وتخايل ابتسامة حذر على شفتيها فهمت أنه
من الأنظف ألا تسمى العملية . ووعدتها بأن أمد إليها يدي . وكنا
نضرب في الشوارع كما فعلنا من قبل كأننا عشاق بلا مأوى .
ومنذ تلك الوهلة التي رأت فيها استعدادي لتقديم المعونة أحسست أنها
أكثر التصاقاً بي . والدنيا صيف . والظل في بعض الشوارع كثر ضيق
كأنه شريط . فكنا نجد أنه منا ممتعززين للتقارب .

لمست أردافها مرة يظهر كفى ثم لمست صدرها مرة بخب ذراعي
فأحسست بنشوة تحولت حالاً إلى شعور بالحرمان ثم إلى حسرة غامضة
كأنها بلا سبب . علقّت بالنفس إلى مدى ساعة .

وفي فترة صمت ظلمت مشينا سألها عن أخيها . فلم تفعل سوى أنها
رددت رأي أمها فيه . إنها تدعو عليه آناء الليل وأطراف النهار وتمنى أن
لو كنا كلنا بنات . مدين مسرف خائب وعماً قليل يتقلب إلى سكير .

فتمنيت أن لو سمعت أُمى هذا الكلام . ثم هممت أن أخبر (زينب) بما
آل إليه حال (سميرة) لكننى وجدت حرجا فسكت .
وعادت الفتاة تقول :

— إن خالتك (وتقصد أمها) قد تغيرت كثيرا . هل تذكر هدوءها
ووداعتها يا فؤاد ؟ كل هذا قد استحال إلى نار . وفي أول كل شهر
تحسب — مع المعاش — ما أبجذته من الدنيا . ثم تعلن أنها لم تأخذ
شيئا . وتدفق كفا بكف وتدمع عيناها .

وكانت الفتاة تحكى بجد وحنان وسخريه في وقت واحد كأنها ترى
ألا داعى للسخط وأن المستقبل ربما حسن . وخيل إلى أنها تقول بعينها :
وأنت من كنوز المستقبل .

وتطور الحديث إلى خلاف نشب بينها وبين أمها أخيرا . إن أمها لم تعد
تقبل نقاشا في شيء . كانت قبل ذلك أهلا من النسيم فقلبها المرض وسوء
المعيشة إلى زوبعة .

— هأنذا بعد تفكير طويل قررت أن أستعجد بك .
فأشرت إلى صدرى مرة أخرى لأؤكد :
— أنا ؟ ...

فاستطردت وكأنها لم تسمع سؤالى :
— فكرت أن أكتب إليك ولكننى فضلت أن ألقاك ... إن أُمى
تعذبني يا فؤاد ...

وأحسست فجأة أنني أمام غريق . وبدا زندها العارى على مقربة من
ذراعى فأمسكتها منه كأني أخاف عليها أن تغوص في الماء . وانصبغ
الموقف — بطريقة مرسومة — بصبغة شاعرية حنون حتى بدت شفتها

السفلى فى متناول فمى . وكان الكابوس يربط على مقربة من هذا المناء اللذيد بتذكرى (حلوان) وكل من فيها . وعرفت ساعتئذ أن بعض النزوات الحيوانية قد يساعد على خلق المشاعر كما تساعد الموائد على إشاعة البهجة فى ليلالى الفرح . وهمست لها بنبرة حب ، وللمرة الأولى فى حياتى :

— زينب . احكى . لا تخافى !

وبدت المسألة أضخم مما كنت أتصور . قالت :

— كان لا بد أن أستنجد بك . يجب ألا ننسى كبرياءنا إلا إذا تأكدنا من كرم من نستغيث به . أمى تريد أن تزوجنى لحيوان . لتاجر بقالة فى حيناً مسن قصير ضخم كأنه برمىل زيتون . تريد أمى أن تصفى المشاكل بأسرع ما يمكن ، لأن خيبة أملها فى الولد لم تجعلها حريصة على البنث . يكفيتها همها وهم الولد الأخير الصغير الذى رأيته . على أنه يبدو أنه سيكون ألعن من الذى فات . لقد ضرب أحد الغلمان بمدية فى كفه فى عراك فى الحارة . وها نحن أولاء فى حيض ييىص . المهم فى الموضوع هو أننى أريد معيشة معينة . إن الأشياء التى تعجبنى غير الأشياء التى تعجب هؤلاء الناس . وأنا أقرأ وأسمع الموسيقى فى بيت إحدى صديقاتى القادرات وأستعير منها كتباً ...

ثم سكتنا معا . وكان كل شئ من حولى يئز . عجلات الترام وصفارات الكمسارية ومحركات السيارات وحتى حفيف ملابس السيدات . فاستحالت الأصوات فى أذنى إلى صفير دائم .

وتذكرت الحقوق الطبيعية لكل قلب وأننى صاحب نصيب فيها . و (فهمى) المصلور ، والمومس ، والفرص التى تأتى قبل الأوان وبعد

الأوان فقط . كأنها الطفلة المعصوبة العينين التي تبحث من الهدف في اللعبة المشهورة . وتذكرت أنني قطعت نصف المرحلة برفقة أمي وأنه من العار أن أتركها وحدها . فربما أدركها الوهن في منتصف الطريق . قلت لزينب وأنا أفك ذراعها من يدي وكنا واقفين على مقربة من النافورة :

— دعيني أفكر .

فاستدركت كمن نسي شيئا :

— لا . لا تعالج الموضوع على أنه كارثة . أردت فقط أن أشرح عواطفى نحوك . على أن المهم هو أن تدبر سريرا لأمي في أحد المستشفيات ... سأعمل على رضاها ولو كلفنى ذلك عمرى . على أن رضاك عندي في المنزل الأولى . ثم قالت وعينها في عيني :

— وداعا !!

وتركتني وسارت . ووقفت بعد برهة أنظر إلى الماء المنبثق من النافورة وهو يطعن الهواء كأنه سيف .

وفي بيتنا كان كل شيء قائما على قدم وساق . كانت أمي تريد أن تنفض يديها من غبار المعركة . ولم أحدثها عن شيء مما جرى مع « زينب » . لم أكن صادقا معها في يوم من الأيام ، لأن الذين نخافهم لا يمكن أن نصدقهم القول . كنت دائما كمن يكلمها من وراء الباب . وذلك عمل غير صالح .

وفي البيت منجدون وقطن وزهريات وملابس وصيني . وكمبيالات ووصول . وحزب يمين وحزب شمال .

والخصام شبه دائم بين الفتاتين . الصغيرة ضعيفة الحيلة تسترضى أختها النافرة باستمرار . خصوصاً في الأيام التي كان العريس يزورنا فيها . وفي أحد هذه الأيام رجعت من الخارج فوجدت عراقاً حقيقياً بين أمي (وبدرية) وكان ذلك لسبب عادي لكن شهرتنا بحسن النية هي الشيء الوحيد الذي يخفف من أخطائنا عند الناس . ولم تكن بدرية معروفة بحسن النية .

كانت تنقل إحدى الزهريات التي تخص أختها فأفلتت منها وسقطت . كان في كفها بقايا إدام . فساعدنا هذا على إتمام الحادثة . ولم تذهب (سميرة) لترى ما حدث ، وكانت أمي في هذه اللحظة جالسة تحسب ما تبقى من طلبات وفي نفسها إحساس بالمسؤولية . وأفادت على صوت التحطيم فلما رأت ما حدث لطمتها على خدها ففرت ترغبي وتزبد واعتصمت بالحجرة العليا في السطح وصممت على ألا تنزل . وأودعت أمي حنقها وأحزانها في حطام الزهرية فأخذت تتناول القطع الكبيرة منها ثم تعيد تحطيمها على البلاط .

وانقضى اليوم على أسوأ ما يكون وكان رشدي ينظر إلى وجوهنا ويتساءل عما إذا كان هناك شيء يزعجنا .

وظللت أنتظر عودة (زينب) لمدة أسبوع ولكنهما لم تعد . وفي فترات هدوئي والساعات التي تسبق النوم المشحونة بالخيالات والأصوات المبهمة — كنت أستعيد حديثها كلمة كلمة وأحس نحوها بالشوق .

وقلت في نفسي لماذا لا أذهب فأسأل عنها . ماذا يجري لو فعلت هذا ؟ هل تشنقني أمي ؟ إن (بدرية) نفسها تواجهها بشجاعة !! لكنني عدلت . قلت متحفظاً : أليس من الجائز أن تكون هذه خطة .

حقيقة أن الموقف كان حلوا لم يخرم من كلمة مخلصة حينئذ لكننى خائف .

وفى يوم شديد القيظ رجعت أُمى من الخارج وقت الظهر و (سميرة) برفقتها يحملان أشياء من مستلزمات الجهاز فى فترته النهائية .

ومر اليوم . وعدت وقت المساء من العمل وجلسنا نتعشى ولم تكن العروس معنا . وكانت (بدرية) تتحرك بطريقة تدل على أنها غاضبة . ولما سألت عن (سميرة) أخبرتنى أُمى فى هدوء وإطراق أنها متعبة . ونظرت أُمى إلى (بدرية) بجانب عيناها .

كانت (سميرة) تتر فى فراشها كأنها عارية وقت الشتاء . ووجهها الزاهى فى لون القرنفل والملابس عليها ساخنة الملمس . سألتها فى هفئة :

— ماذا بك يا (سميرة) ؟

— لا شيء يا أختى . برد خفيف .

— هل فعلت ما يستوجب ذلك ؟

— دخلت الحمام .

ونحنأوأصبحنا . ورأيت على وجه أُمى وقت الصباح قساوة من نخاض معركة خسر فيها كثيرا . وأطالت صلاتها أكثر من العادة . وأفطرت وحدى ونخرجت .

كان شيء ثقيل الجناح موحش الظل يرفرف على كل منظر خصوصا على بيتنا . وكف كأنها مخلب تقبض على قلبى .

ولم تكن الحال قد تحسنت وقت الظهر . ولم ألق نظرة على وجه (بدرية) حين وصلت . وأخذت القضايا أوضاعا ظالمة صارخة فى

الظلم بين الأفراد الثلاثة في البيت . وفي المساء استدعينا طبيباً :

— أوه ... التهاب رئوي حاد .

— خطر ؟!

— ليس دائماً . ماذا فعلت الفتاة ؟

— أخذت حماماً عقب عودتها من البحر .

— اسهروا إلى جانبها .

ومن غير أن يصدر أوامر لم تذق عيوننا نوماً . خيل إلى أنها تتسلل خارجة من البيت وأنها تصق على الجهاز مع النظرة الأخيرة . وانتابني إحساس حاد طارئ خارق فصعدت إلى السطوح . كان الدجاج يقرقر ، وفي السماء قمر صغير . وزوجان من الأرانب يسريان تحت النور . ونظرت إلى الجبل والكهوف التي يخيم الظلام على أبوابها وأرسلت دمعة ، من العين العزيزة الدمع .

وتحت ... كانت أمي تتحسس ركبتيها هي فقد شعرت هي الأخرى بالتعب . أما (بدرية) فلجأت إلى الفراش لأنها كانت شبه منبودة . شيء لا يعلل !!

وفي اليوم التالي دخلت ظهراً على (سميرة) فرأيتها تبسم من خلال الآلام ولم يكن شيء من التحسن قد طرأ على حالها .

قلت لها بينان :

— سميرة !!

— نعم .

— قولي ، ولو كلمة . أي كلمة !!

— اطلب .

— قولى .. قولى .. إنك بخير !

— حاضر !! (ولم تقل شيئا) .

وبدت الأشياء عند دخول الليل كأنها مستعدة لاستقبال حادث . ولم يكن يسمع فى الضاحية إلا صفير القطارات الممطوط . وخيل لى أن (سميرة) آخذة فى التسلل خارجة كأنها أسيرة تريد العودة إلى وطنها . وأيقظتنى أمى بنقرة واحدة على الباب وكان أحد الديوك ساعتش يعلن بصياحه قرب الفجر . فرأيت على وجهها أمارات مريعة ذكرتنى بموت أبى .

فانفجرت أبكى مع أمى على القديم والجديد ... آه !!



١١

وتركت لنا ثيابا وعطرا ... ومشيت . وجمعت أُمى أشياءها في حجرة وأغلقت بابها . وكان حزنها يبدو في عينيها كأنه ذهول . وأحس أهل (العريس) بخجل كأنهم جنة فلم نعد نرى أحدا منهم . وحملت (بلرية) شئون البيت في صمت . ووقف الزمن كأنما ليأخذ مهلة . وجاءت (زينب) صباح يوم إلى الإدارة لتسأل عما كلفتني به فلما رأت هيئتني أنكرتنى . ثم عرفت الحادث فانصرفت دامعة العين . ثم رأيت في ذلك المساء (فاطمة هانم) عندنا مطرقة بجانب أُمى في هيئة تبدو الأحران بها شيئا كريها حقا .

وسهرت أسأل ذات ليلة عن مقدار رأس المال الذي تدفع أُمى عنه هذه الضرائب . أى فترة من فترات عمرها كانت رغبة ؟ سمعت أنهم شقوا من أجل أن يكون لهم ولد ، وأنهم لجأوا إلى الطب والتنجيم ونذروا النذور وقطعوا العهود . وهذه أُمى لم يفرغ قلبها من المشاغل ، كانت تخاف على

الكتاكيت من الحدأة وها هي ذى (سميرة) قد ماتت وهى عروس كأنها
دجاجة خطفها ثعلب .

ولم أعد أحس بالنقمة على شىء . ليس من المروءة أن أترك مثل هذه
المرأة وحدها . لقد أحرقت كفها شمعة العرس !! قالت لى يوما : إنها
ستكون بزواج (سميرة) قد قطعت نصف المرحلة . ذلك حسن .
الموقف لم يتغير وإن كنا قد وصلنا من الباب الآخر . فبموت (سميرة)
قطعنا نصف المرحلة أيضا . مسكينة !!

وها قد مضى على موت أبى ثمانى سنوات وأصبحت ابن ست
وعشرين سنة . و (بدرية) فى الثالثة والعشرين . والأم قد تجاوزت
الخمسين . وأصبحت (المثل) أمامى فى ثيابها الحقيقية بلا شفوف
ولا مساحيق . فصصمت على أن أرسم خطة وأن أربط نفسى بها .
لا أمشي بعد اليوم بطريقة الصراير التى تتلمس طريقها فى زعر
فلا تعرف البدء ولا النهاية .

وقلت لأمى ونحن نتسامر : إن حالتك الصحية تسوء . حافظلى على
نفسك من أجلنا فلا يجب أن تتركينا يا ماما . لا بد أن تعرضى نفسك
على طبيب .

و كنت آمل أن تفتح لى الباب فأرى ما بالداخل وأن تشركنى فى أى
شىء ، لكنها على الرغم من تأثرها بقولى لم تغير من خطتها معى . فوافقت
على الذهاب للطبيب ولم تطلعنى على الخطة القادمة .

وأصيبت اقتصادياتنا بضربة . فقد استهلك الجهاز قوتنا . وحذف من
المعاش نصيب (سميرة) . وحرمتنا نفسنا من الملذات . وكان الصاعد منا
إلى السطح والنازل منه على السواء يتحسس يديه أو بعينه الصدع القائم

في ركن السلم . سيطلب منا فجأة وبلا انتظار ترميم ، والصدع القديم لم يرمم بعد .

وأُمي أيضًا محتاجة إلى ترميم لأن الروماتزم سبب لها ورمًا في ركبتيها وعند كعبيها . وهي مكلفة بالخروج فقد تعودت أن تشتري الأشياء بنفسها . ومنظر سيدة طويلة عجفاء في ثياب سود تمشي وهي تعرج وعلى ملاحها بقايا عز وأمرة شيء يدعو إلى الرثاء .

وذهبت إلى طبيب مشهور فقرر شيئًا عجيبًا خضعنا له .

— اخلعى أسنانك كلها يا سيدتي ..

— كلها ؟! كلها ؟! كلها ؟!

— هل تشعرين بأنها سليمة ؟

— لا .

— إذن فاخلعى أسنانك كلها .

— حاضر !!

لكنها أخرت ذلك ريثما تفرغ من شيء معين .

لم يكن أحد من أهل (العريس) يأتي إلينا كما تعلم . وأكبر كل من الطرفين قدسية الموقف فلم يتكلم أحدهم في الماديات ، فأضحى الجهاز في بيتنا كقطعام الوليمة الذي اعتذر عنه كل المدعوين . وكانت أُمي تخرج وتعود وكأن على وجهها تجميدة جديدة . أما (بدرية) فكانت تعاني بيننا موقفًا حرجًا فلم تكن نرضى عن تواضعها ولا كبريائها ولا طاعتها ولا عصيانها . تنهما نظراتنا بالشماتة أو بالنفاق دائما دائما .

وفي ليلة الأربعاء جاء فقيه يقرأ وعلقتا (كلوبا) على الباب من الخارج . وحشرج الفقيه وأز وقرأ عدة سور وذكر (حور العين)

فتخيلت أختي ينيهن . ماذا عسى أن يكن (حور العين) إلا الطيبة
والحب والهدوء والسلام ؟ وكل هؤلاء قد اجتمعن في (سميرة) .
وفصلت هذه الليلة بين فترة من الخيال والواقعية فقد صممت
أمى — على ما بدا — أن تنتهى من الموضوع . وأتأكدت على ذراعى
وخرجنا فى الصباح . وكان لونها كاييا وكأنما لوحته الشمس . عواملنا
الداخلية تغير ملامحنا ؟؟ سبحان الله !!

وكان (رشدى) قد سكن فى المدينة فذهبت أمى إليهم . وكنت
أتصفح الوجوه وأنا جالس معها فى القطار . خيل إلى أننى رأيت أثر التوفى
كل شيء كأننى غبت عن الدنيا وعدت : هذه الفتاة لم يكن لها نهدان وها
هى تنظر إليهما فى حياء . كبرت ! وهذا الغلام قد حلق ذقنه وقد كنت
أرى على خديه الزغب . كبر ! والكمسارى معنى الظهر لأنه طويل ولم
يكن كذلك . كبر ! وبدت لى نخلة من الشباك بين نخيل جزوا جريده
فتذكرت أن بلحه منذ سنوات كان فى متناول اليد . أما اليوم فلا بد من
الصعود . كبر !! وأمى ... كبرت ! مليء وجهها تجاعيد . وقد قالت لى
منذ ليال : إنها لم تصنع شيئا . كأنها صاحبة رأس مال لا ينتج . وصفقت
بكفها .

أنا وهى واقفان على الطريق والناس يسرون . لها معاش من الخزانة ولى
مرتب من نفس الخزانة . تمشى علاواتى . ببطء خفيف وعمرى يثب
بسرعة ولا بد أننى كبرت مثل هذا الغلام وتلك البنت والكمسارى
والنخلة . ذلك طيعى لكننى أراه فى نفسى .

وودعتها عند آخر الخط ودعوت لها بالتوفيق :
— مع ألف سلامة .

وأحس بعض الواقفين بحرارة الدعوة والتفتت إلى سيدة مسنة وفي
عينها حزن . وصرفت وجهي عن الناس ومشت أُمى تجر ساقها .
وفي ذلك اليوم كنت أحسب الحسبة في الإدارة أربع مرات أو خمس
مرات . إن الحياة في ذاتها قسوة لأنها مذكورة من الموت وإن لم نشعر بذلك
فكيف إذا تسلحت بالقسوة ؟!
وعند الظهر كانت أُمى تأكل بلا شهية وتشكو من اخضم وتحس
مفاصلها وتنظر إلى الصدع في الحائط وإلى الصورة الصغيرة لسميرة تلك
التي دقتها بيدها قبل أن تموت :
— لماذا لا تشتكين لي يا ماما ؟ ... خفني الغناء عن الوعاء الذي
يغلي !!

قلتها فجأة وبخني فجاءت كلماتي كأنها شكوى . عندئذ تلملت في
مقعدها وقالت وهي تعود إلى تماسكها :
— يكفيك ما أنت فيه ... بعد مرور هذه الفترة سيصبح كل شيء
طيبا . على شرط آ ...
وظننت أن ذلك متعلق في فاستوضحتها بالحاج فاستطردت :
— على شرط ألا تقلع سفيتي في وقت مبكر ... ألا أموت .

واستيقظت في فراشي بعد الغداء لأنني سأعود إلى العمل في المساء
وقمت من النوم والطعام في بطني كأنه حجر . ثم ركبت القطار وفطنت
وأنا جالس حين رأيت خيالي في زجاج الشباك أنني لم أسرح شعري .
وكانت العيون تأخذ ناصيتي المنكوشة بشيء من الفضول لكن وسامتي
غطت على الفوضى .

ورأيت ظهر فتاة خارجة من الإدارة حين وصلت إليها وأدركت أنها (زينب) . هل جاءت لتسأل ؟ وأعرضت عنها وعبرت العتبة لكنني وجدت نفسي مدفوعا وراءها وجريت في نفس الاتجاه القديم إلى (لاطوغل) وقبل أن تعبر هي شريط السكة الحديد دق جرس الإنذار بمرور القطارات فوقفت وأدركتها .

كل شيء في الحياة كان ذابلا في هذه الفترة حتى (زينب) تحت أذننها وعلى وجهها الشاحب بقعتان حمراوان كأنهما صفتتان من كف غليظة ، وشفتها السفلى متشققة بحيث خيل إلى أن من واجبي أن أندبها . وأمسكتها من : ندها بلا تردد . كأننا في آلامنا نكون أشد اندفاعا وأقل في التحفظ . وبدا في عينيها شبه دموع ولم تقل شيئا حتى انقضت جلبة القطار . وعبرنا وسرنا كأننا عشاق بلا مأوى وخيل إلى أن الشيء الوحيد الذي ينبغي أن يقال هو :

— تعالى ... نذهب إلى أى مكان ... نصنع أى شيء ... بل كل شيء . نأكل تفاحة واحدة لأول مرة ولآخر مرة على مائدة حياتنا التي لا تحمل إلا الخبز والمخلل !!

لكنها تكلمت فقالت شيئا آخر :

— فؤاد ... جئت إليك !! ... أ ...

قلت مستعجلا وبشوق :

— أنا أعلم أنك جئت إلى . قولى .

— إن أمى . آه ...

— لا تتأوهى . اتركى هذه العادة .

— أمى في حالة إعياء شديد . تصور أنها تنزف منذ ليلتين ؟

— لماذا لم ترجعى إلى ؟
— ليحاول كل واحد أن يعمل هم نفسه .
— كأنك لا تشعرين أن المتعيين أقرب إلى مساعدة أمثالهم ...
الناقهون في المستشفى يخدمون المرضى !
فنظرت إلى .
وكانت عيناها متعبتين لكن نفسها قوية . وعلامات كأنها من أرق
الحب عند زاويتي شفتيها . وهممت مرة أخرى أن أقول لها « تعالى ...
نصنع أى شئ » لكن واقع حياتنا ينصب على رءوسنا فجأة إن غفلنا عنه
كأنه ماء بارد .
— سأجهز لها سريرا . هكذا تفعل البواسير . هل صحتها العامة
حسنة ؟
— نوعا . لكن ...
— ماذا ؟!
— لماذا يتركنا آباءنا للمتاعب ؟!
وسمعت من فمها لأول مرة منطق المرأة المغلوبة . واثارت في لأول مرة
نفخة الرجل القادر وقلت لها في حماسة :
— لا تقول هذا . إن الدنيا لم تخل من الرجال .
فأطرقت هي أما أنا فتذكرت أمى وأين هي الآن . وموقفى من البيت
فكفكت بنفسي حماسة نفسى .
وتواعدنا أن نلتقى بعد يومين لتدخل أمها المستشفى . وفي الإدارة
كان هرج ومرج جديديان يصلران من الموظفين فقد أعلن (فهمى) أنه
سيتزوج وأن مساعى جديده تبذل لنقله إلى وظيفة أكثر احتراما . وعما

قليل سترك وظليفة (٦ × ٥ و ٨ × ٧) إهدار للعقل وحتن لنور المعرفة كما يقول . وجعلوا يصخبون : « يا بختك يا عم » .
أما أنا فكنت مشغولا عنهم بشغلي . وكثيرا ما نادوني فلم أرد ،
فتركوني في معزلى في سكون .

وقررت في المساء أن أدخل على أمي في عزلتها ولكنها ردتني بمهارة ولطف ونختني باسم الخنان على صميم المشكلة قائلة إنها لم تصل فيها إلى مرحلة حاسمة وقد يكون من المحزن لي أن أعرف تفاصيلها .

وفي اليوم التالي رأيتني في البيت وحدي . وكانت أمي و (بلرية) في الخارج لبعض الشئون . وطفيت بالحديقة وصعدت إلى السطح وجلست في كل مكان حتى دورة المياه . وتوقفت عند الصدع في ركن السلم ووضعت فيه أربع أصابع وجرت نفسي حتى وقفت في الصالة كأنني لا أجد مكانا أذهب إليه . ونظرت إلى الحجرة المقفلة على حاجبات (سميرة) وكان الظلام مطلا من خصاص بابها . وأحسست أن شيئا في داخلها يناديني وكأنني سألقى العروس فيها مطوية على كرسي من الكراسي . لكن المفتاح كان مع أمي . إحساسات لا تعلل كالتى حكوها عن القصور الخرافية ذات السبع حجرات والسبعة أبواب وكل شيء فيها مكون من سبعة ، وكانت الحجرة السابعة محظورة الفتح دائما . والبطل الخرافى كان يفتحها دائما لتبدأ المتاعب ...

وتبسمت . وذهبت إلى حجرتي وخلعت مفتاحها . وبعد علاج قصر انفتح الباب عن الظلام والوحشة . وأشعلت مصباح النور فلم يشتعل لأن أسلاكه تالفة . وخفت الظلمة حين ألفتها فرأيت كل شيء مكدسا . واتجهت نحو صوان الملابس فألقيت نظرة على ما فيه فإذا

الفساتين معلقة على الشماعات تفوح منها رائحة (سميرة) فرجعت تاركا آثار أقدامى على الأرض وجريت نحو الهواء .

وتلقانى الكلب فى الحديقة بعين أذتها ذبابة فسالت دموعها . فربت على ظهره وفتحت الصنبور لأروى النبات الحى .

إن أمى معلورة . إن (سميرة) مشت فى وقت غير مناسب .. وأدركت بعدئذ أن الطرفين مختلفان على الجهاز . ولكى يتزوج العريس . ينبغى أن يأخذ نقودا . ولكى لا نخسر نحن ينبغى أن نتخلص من الجهاز ونحن مدينون لكل من يجهزون العرايس وهذه المشكلة .

وفى الوقت الذى كنا فيه نودع (فهمى) ونبادله القبلات داعين له برحلة طيبة فى شهر العسل — كان (عم سيد) يقول لى بنبرة هامسة ووجهه يحمل سرا :

— فؤاد افندى ... كلم .

وكانت (زينب) بانتظارى . وكان كلانا يحس أن الحياة فارغة أو متوقفة بالنسبة إليه . وشكت لى أول ما قابلتنى أن أمها تلاقى فى المستشفى إهبالا . فاستمهلتها حتى المساء ثم التقينا هناك . وبذلت ما فى استطاعتى لأوصى عليها . وظلت المريضة تثرثر بذكرياتها عن علاقتها بأمى وتلقى إلى بنظرات ملؤها الأمل ولعل فيها حبا . أما الحياة فى بيتنا فكانت على النحو الذى تعلمه غير أنى كنت قد وصلت إلى حالة مشبعة بالملل وأريد أن أمد يدى فأغير أى شىء .

ولما خرجنا أنا وزينب كان الليل قد هبط منذ ساعة . واقترب كل منا من الآخر ونحن نعبir حديقة المستشفى فى طريقنا إلى الباب . وبدأت رائحة الزهر والندى والعشب والليل تشغل مكان روائح العقاقير .

وهتفت زينب باسمي ويدها تلمس طريقها إلى يدي . فلما تلاقت أكفنا تطابقت كما تفعل الكماشة . ودقت ساعة البرج في هذه اللحظة فكأنما دقت مائة !! لا أدري !! شعرت أنني سكران وأن شيئاً ضخماً في الحياة لا يزال ينقصني .

وأصررت على أن أوصلها إلى بيتها . ولم أكلمها ونحن في الترام . وكانت نظراتها المشفوعة دائماً بابتسام تعدني . حتى إذا ما وصلنا إلى الحارة بدأت فرصة التكوص لكنني تشجعت حين أغرتني بفنجال من الشاي :

— ألا تريد أن تشرب « شاينا » ؟ من المحتمل أن يكون أخى قد وصل !!

وكنت في قرارة نفسي نائراً على الدنيا كلها . أرى السعادة في أن أخطف (زينب) وأطير بها إلى أي مكان . وفتح لنا أخوها الصغير وكان وحده في المسكن كأنه جن . وطالبها بالعشاء وتركنا ونزل ليشتري حلالة وجبناً وخبزاً من القرن الجديد هناك بعيداً عن الناصية !! ولما استأذنتني بلهجة لينة أن تذهب إلى الحجارة الأخرى لتخلع ثيابها وجددتني — وقد فرحت بنفسى بعدئذ — أمسك معصمها وأقول لها بلهجة ذليلة :

— لا تتركيني !!

فتأوهت وأقبلت على وقد بدا التسليم على أجفانها المكسورة :

— أنا ؟! ... لا أريد أن أتركك أبداً !! ...

وتهاوينا على الكنية . وغابت الصور التي كانت تزعجني فلم أتذكر أحداً حتى ولا أمي ورأيت (زينب) على ذراعي كوسادة من الريش

أستطيع أن أثبتها في أى اتجاه كما يشرب الطائر الخائف حتى أيقظنا جرس الباب . وحين كان الجنى الصغير ذو العينين القلقتين يتناول عشاءه على مرأى منا كنا نهمس بالحديث قالت :

— هل سببت لك متاعب ؟ إن جرس العفريت جاء في الوقت المناسب ... ما لنا كنا هكذا ؟! سكارى ... أنا شخصيا كنت سعيدة . وأنت ؟

فقلت شاردا :

— لا أعلم كنت في حلم لا أكثر ولا أقل !

فقال ضاحكة :

— صبح النوم !!

وأمسكت نفسي أن أقول لها : تعالى نهرب إلى أرض ليس فيها سوانا . بعيدا عن كل الناس . لكننى تذكرت أن فى (حلوان) امرأتين تنتظران عودتى بلا عشاء . وأن كلا منهما قد أوت إلى فراشها بأحلام لم تتحقق بعد . فتنهدت وتنهدت بعدى (زينب) .



١٢

وأعلنت أُمى بعد ذلك بأسبوع أن الأزمة قد انتهت تماما ... فسألت
بسناجة وفرحة كانتا سببا في أن نظرت إلى في شيء من اللوم :
— انتهت ؟! .. يا سلام !! ... ما الذى حدث يا ماما ؟
— كل خير . سنوات المتاعب بدأت تغور . منذ موت أليك وأنا
أعاني قلقا عليكم . أأست معى ؟ ... من غير شك !! وكان موت
(سميرة) حادثا غير مريح . رحمها الله . ارتاحت من الدنيا .. لو أنها لم
تترك جهازا ما تفاقمتم المشكلة . أنا مديونة لكل الناس يا فؤاد وكانوا
يريدون أن يأخذوا مهرهم . تصور !! ... وأبقى بعد ذلك أدفع أقساطا
أو أرد ما اشتريه بثمن يخرب البيوت . ونحن لا نحتمل هزة (ثم
صمت) .. لا يزال أماننا شوط طويل . البيت يريد ترميم وأملك تريد
. ترميما .. وأنت ؟! أنت تريد أن تتزوج . وأغمضت عينيها كأنها تعلم
وأطرقت أنا نحو الأرض حتى لا ترى ما فى عيني . وظلت — وعلى وجهها
شبه دعاية — متربصة بى تريد أن ترى أثر قولها فى ملاعبي فلما لم أنظر إليها
رفعت جبينى بإصبعين وهى تبتسم ، فابتسمت لها . وقالت :

— لعلك تقول الآن : مالى ومال هذه المتاعب ؟

— لا .

— كل شيء سيسير سيرا حسنا بإذن الله . بدأت أتفاعل . أحلامي تبشر بأن سنوات الهموم بدأت تغور . لا تخزن . فقد أخذت أرضنا نخضر . عاونى ولا تقلق . بعض الناس يفرقون بالقرب من الشاطئ وكثيرا ما يجعلون آخر شوط في العمل أسوأ شوط فيه . أتفهمنى يا بنى ؟!

— نعم أفهم .

— سيتزوج رشدى من بدرية . وستلبس العروسة ملابس العروسة . ليس هناك مفر . غير أننى أدعو الله أن تتخلى عن رعونتها حتى لا يضجر منها لأنها (شعونة) .

— زوديتها بدعائك .

فابتسمت . ومدت يدها فتحسست شعرى . « عندما ترتاح أمى من متاعب الدنيا . ويخف لها تكون أطيّب من النسيم . ظروفنا تغير أخلاقنا » .

قلت ذلك فى نفسى وأمنت عليه وتذكرت أحد زملائى حين يكون أرعن التصرفات سليط اللسان عندما يخلو جيبه من السجائر ... تمام . نقص مطلب قد يغير اتجاهنا الفكرى . ثم شهقت كمن سقط فى الماء وسألت نفسى :

— إذن فما الذى يحدث لإنسان ينقصه الحب ؟؟

ووقفت عند هذه القضية وتذكرت أننى مسكين يخر الحرمان فى إحساسى كأنه مبرد يأكل شيئا هشا . أنسى نفسى على محطة السكة الحديد

أو غيرها بالثلث ساعة لأراقب أرداف النساء حين تبتلع الثوب الخفيف من هبة الهواء . أو أرسل نظرتي متسللة من فتحة الصدر لأرى الخندق الأبيض . وخيالات الجنس مشوبة بالخزعبلات دائما .

تذكرت (زينب) جيدا وأمى تحكى عن كل شيء وتعلن انتهاء المشكلة بوجه زالت عنه التجمعات كأنه دهن بالحوية . حتى نظرتها كانت أكثر تألقا ووجهها أعمق سعادة . وكدت أبوح لها بمكنوني . فقد تخيلت أن أى شيء في الدنيا لا يستطيع إغضاها الآن ، لكننى أمسكت من باب الاحتياط .

واختفت صورة (سميرة) من على الحيطان . ودخلت إلى علبة في جريدة قديمة في ركن من الدولاب في الحجرة التي فوق السطوح والتي تحتوى على ذكريات أبى .

أما بدرية فقد بدت وارثا بغیضا لأنها كانت متهمة في حياة الموروث . وكرهتها في نفسى حتى كأننى ضبطها فخلع خاتم الخطبة من يد أختها المسجاة لتلبسه في صمت !! ربما كان ذلك لأننى كنت أحب الصغيرة ... فأنا أحب الهدوء وسكون الطبع ولعل (زينب) قد استأثرت بانتهامى لأنها تبدو دائما كالمحتاجة إلى ، أنا الضعيف لكننى أحب التى تستند على ذراعى .

وانغسل التراب عن البيت وانفتحت الحجرات فلم يبق هناك شيء مغلق . وكانت بدرية في الصباح بخادمة مخلصه وبعد الظهر عروسا نظيفة . قلت في نفسى : عجيبة . في هذه الفتاة مواهب . إنها تحكم كفها تماما على الشبكة ولن يفلت منها الصيد . ودعى العريس للعشاء عندنا لأول مرة بعد الحادث المؤسف .

ورأيت أُمى تذيب دجاجا وتطبخ كشكا كما كانت تفعل أيام زمان !
وجلست بدرية على المائدة إلى جانب رشدى . ولم أطق المنظر أول
الأم . ثم أطقته كما تألف الشكل المشوه مع مرور الوقت . وكانت أُمى
تبدو سعيدة . أما رشدى فمن حسن حظ بدرية أنه من ناس يأكلون أى
شئ ، ويلبسون أى شئ ، ويرقدون فى أى مكان وإن أبدى شيئا من
المقاومة .

ومن الغريب أنه أصبح يزور بيتنا أكثر مما كان يزوره قديما . أيام
العروس الجميلة الواقعة فى صف « بنات الحور » . وكتمت أُمى سعادة
وإعجابا . واستنبطت أنا أن القدرة على التملك فن يوهب ، سره غامض
ولا تكشفه إلا الظروف .

على أن هناك شيئا قد تعجب منه حين تحسه منى . هو أن اقترانى من
أُمى كان يزداد كلما هبت الريح رخاء على الأسرة . وكلما زاد قرى من
أُمى زاد بالتالى بعدى عن (زينب) . فأنا لا أستطيع أن أرتبط بها حتى
ولو بكلمة ولا أجرو على مفاتحة أُمى فى أمر زواجى فى الفترة التى رقدت
فيها على بيتنا تلك السحابة السوداء . أما إذا كانت الأمور على غير ما يرام
فى بيتنا فقد كنت أدنو من زينب دنو الذين يعملون معهم عنرا واضحا فى
عدم الارتباط بامرأة .

لذلك كنت فاترا إلى حد ما حين طلبتنى (زينب) فى الإدارة
وخلقت عنرا لبطلى يومناك :

— منذ تلاقينا . فى الليلة المعهودة لم أسمع عنك خبرا . لقد انصرف
سعيدا ليلتذ أليس كذلك ؟ فهل جد جديد ؟ ..
— لم يجده جديد .

— كثير من الأشياء لا يعطى أثرا عكسيا إلا بعد وقوعه بملء . يعنى بعدما يكشف الناس له دوافع جديدة ...

فقلت بغلظة :

— لست فاهما .

— ليس ذلك ضروريا . الضرورى أن أعلم ما إذا كنت سعيدا ؟

— الحمد لله !!

— لا يبدو ذلك فى عينيك . آه ...

— عدنا للتأوه ؟

— كل شىء فى حياتى يبعث على البكاء . إن الموضوع الذى حدثتك عنه بدأ يتجدد .

قلت متجاهلا بنجھامة وبلادة :

— أى موضوع ؟

فنظرت فى تشكك وقالت بأسف :

— نسيت ؟! ... أنت من الذين ينسون ما يعجبهم ؟! إذن ...

فهو ... موضوع البقال .

وكنّا عبرنا الشريط فى نفس الاتجاه . نحو ميدان (لاطوغلى) وقطار
إذهب إلى (حلوان) يطلق صغيرا طويل النفس مستعجلا فى سيره . وفى
قلبي فى هذه اللحظة فرحة انتصار بما ظفرنا به . وميل إلى التريث حتى بدا
لى أن هذه الفتاة ليست (فرصة) وستلد الأمهات وسيظللن قلقات على
زواج بناتهن كما فعلت أمى وكما تفعل أمها وكما ستفعل زوجتى . لا داعى
للعجلة . إنها تضيق على الخناق . حقيقة لقد تقابلنا ... لكن ... أنا
لا أملك الآن خطة واضحة .

ووجدتني أضحك . فنظرت إلى باستغراب وشحوب لأنها لم تعهدني
كذلك :

— هل هناك ما يدعو إلى الضحك ؟ أذلك لأنني أفضلك على رجل
آخر ؟ الفرق بيني وبينك هو أن أحدا أخذ الأمر جدًا والثاني أخذه
هزلا . هذه هي المسألة .

وحاولت أن أفسر لها موقفى ولكن ذلك لم يكن ناجعا . لأن الفتاة
حين تعطى يصير إحساسها أكثر رهاقة : خصوصا عندما تكتشف أن
هذا الرجل لم يكن يستحق .

وافترقنا .

وبدا لى أن حرمانى موعود وموقوت فأصبحت أحتمله . وخطت
سنى إلى السابعة والعشرين . وأسرعت أُمى فى إعداد كل شيء . ولبس
رشدى سحنة المحبين فقد لعبت به بدمية . صعدت مرة إلى السطح فرأيت
معها عند حظيرة الدجاج يقدم بيديه فتات الخبز للأرانب : ورأيت مرة
يسقيها وهى فى الفراش .

وسعدت أُمى (بنظام الحكم) وأيقنت أنها ستموت مرتاحة البال .
ولما عاد (فهمى) زميلنا فى المكتب من شهر العسل كنت ضمن
الذين لا يناصرون قضية الزواج الباكر . كان شاحبا كأنه منزوف يقذفه
أكبر الموظفين سنا بالكلمة تلو الكلمة كأنه يرميه بالمقلاع .

ونحن نحس بشماتة خفية وبالتالى بنصر مبهم حين نرى إخفاق الذين
يسبقوننا إلى شيء كنا نتبناه ولم نحصل عليه ، لذلك شاركت بلسانى ضد
(فهمى) حتى استرعى ذلك انتباه من حولى .

على أن مقامه عندنا لم يطل وصحته لم تتقدم . وانتقل إلى الصعيد
لهعيش فى الجو الجاف . وغابت عنا أخباره وحل محله موظف آخر .

وهكذا بدأت الأشياء تتغير ...

وأجمل ما في تغيرها أن بدرية زفت إلى زوجها في إجازة نصف السنة .
وقد شعرت — أنا وأمي — أننا اثنان فقط عندنا . عودتنا من بيت
العروس . وانفجرت أمي باكياً وهي تعبر الصالة ، أما أنا فقد دق قلبي
لأنني تذكرت — وعيني إلى الصدع القائم في ركن السلم — أنه كان في
بيتنا منذ عام واحد فتانان ناضجتان ذهبت كل واحدة منهما إلى موضع .
وأن هناك مطالب لا تزال قائمة ... كلها ترميم وإصلاح .

وأوينا إلى فراشنا متعين كل في حجرة يفصل بيننا جدار . ونام البيت
وكأنه لا يتنفس . حتى الكلب لم ينبع في هذه الليلة . وكنت أفكر في غير
ما تفكر فيه أمي . كانت هي مشغولة بما يجري تحت المصباح الأحمر في
بيت بنتها ، أما أنا فكنت مشغولة بمسألة بدأت عويصة :

« ما الذي أحزن عليه لو أنني خرجت من هذه الحياة . وما الذي
تخزن عليه أمي لو خرجت منها ؟! » .

ولم أجد سوى أنني لم أتزوج ... فانتقل فكري إلى أشياء أخرى في
مقدمتها زينب :

« أليس من الجائز أن يكون مقسوماً لي ولها أن تبدأ حياتنا بليلة مثل
هذه التي بدأت بها حياة رشدى وبدرية ... آه ... إن عالم المرأة شيء
خطير . ترى ما تفاصيله ؟! » .

وتذكرت شقا كبيراً فاغراً فمه يقوم في ركن السلم ... عندنا في
البيت ... وأمي المتهمة ذات الركب المتورمة والمفاصل الملتهبة والأسنان
التي أمرت بخلعها :

« يغذوننا بلبنهم أول العمر ، يطعموننا صحتهم في أواسطه وعندما

يضعفون .. ماذا ؟! .. ربما اعتبرناهم أعباء !! » .
 واستغرقت في النوم . وفي الصباح كانت أمي تقضي : وبنها على وجهها أنها
 لم تسم . وكان اليوم يوم الجمعة ، فانتظرنا حتى الضحى وركبنا إلى العاصمة .
 وكنت مشوقا إلى أن أرى وجه اثنين تركناهم بعد منتصف الليل البارحة
 فقط ونخيل إلى أنني حين ألقاهم سألقى فيهم ناسا لم أرهم من قبل ...
 لم يكونا قد نهضا بعد من الفراش حين وصلنا في الساعة العاشرة ...
 وجلسنا حيث تجلس أم رشدي حين نخرج علينا العروسان .
 ولم أحاول أن أفحص شيئا طوال خمسة عشر يوما منذ تلك اللحظة .
 كل ما في الأمر أن أمي كانت دائمة الحزن وأنها كانت تفضل أن تذهب
 وحدها دون أن تستصحبني معها . ورجعت إلى عاداتي التي عودتها لي ،
 ألا أكشف الغطاء عن إناء مادامت قد حجبتة عني . حتى دخلت عليها
 ذات مساء فأنفيتها تشرح شعرها بعد الاستحمام على وجهها ابتسامة
 بيضاء وثوبها الداكن قصير الكم تبدو منه ذراعها البيضاء . وهممت أن
 أسألها عن سر السعادة الطارئة ، لكنها قالت بإيجاز وهي تتناول المنديل
 لتعصب رأسها :

— منذ ليلة أمس وكل شيء في بيت بلرية على ما يرام .
 ونظرت نحو حجرتها بخجل وشرعت تربط المنديل بإصبعين .
 فهززت رأسي مؤمنا وأنا أقول في نفسي : « أم البنات ، حبي حتى
 الممات » هكذا قالت الأمهات من قديم ..
 غير أنني نهضت وفي نفسي سؤال عن العريس ظل عالقا إلى أمد طويل :
 — « هل كان رشدي شابا مستقيما قبل الزواج ؟ أعتقد ذلك .
 طيب ... وأنا ؟! » .



١٣

وتغيرت أُمى كثيرا بعد زواج بدرية . صرت أشعر معها وكأننا
حيبيان . أصبحت أكثر رقة وأوفر حبا وغيرة مما كانت من قبل . وأجمل
ما فى حياتنا الآن ليالى سمرنا . فقد استعدت كثيرا من خصال الطفولة
وأصبح يسعدنا أننى عدت طفلا . لا يسعد الأم أكثر من تعلق ابنها بها ،
خصوصا إذا عاشا وجها لوجه ...

كانت غرفنا متجاورة وكنا نتناول العشاء — غالبا — فى غرفتها
وعلى الكنبه المتاخمة لفراشها تجلس هى وأنام ورأسى على فخذه . وعينى
إلى وجهها وهى مطرقة تحكى . وكنت أتخيل أن ابتسامتها تسقط على
وجهى كأوراق الورد . وهى دائما تعبت بشعرى . وتثير من ذكريات
طفولتها وحبا وزواجها ما رفع الكلفة بيننا . وكنت أسلخ عن حديثها
برهة لأسأل نفسى : لماذا لم تكن أُمى فيما مضى لطيفة معى إلى هذا
الحد ؟! وأعود فأندمج فى التيار . ونعملنا الحديث من التسلية والترفيه إلى
الجد المرير أحيانا فتتكلم عن المعيشة وتكاليفها وعن مستقبل مرتبى

وكيف يتسنى لى أن أعيش به مع زوجة وأولاد . وتفترض أُمى وهى تحقد فى وجهى جيدا أننى رزقت بزوجة متلاف مفتوحة الكف كثيرة المذرية فماذا يكون حالى ؟

— كل فم وله رزق يا ماما فلا ترعجى نفسك .
— لو أن هذا البيت كان لك وحدك لخفف المتاعب . إن أختك شريكة فيه وهى فتاة طماعة . لكن ...
ويتوقف الحديث . وأقوم فأجهز لها اللباء الذى تأخذه قبل النوم وأقف حتى ترقد فى فراشها . فأحكم عليها الغطاء والنوافذ إذا كان الوقت شتاء وأبعد المدفأة عن طريقها إلى الباب ثم أقبل يدها أو جبينها وأطفئ النور فى مخدعها وأذهب إلى حجرتى .

ونتناول الطعام فى الصباح معا ونشرب القهوة . ونحيل إلى مع مرور الزمن استتباب الأمر واتحاد النعمة فى وجودنا أننا كنا هكذا منذ (آدم) وأنها ستظل هكذا حتى القيامة .

ويدخل الشهر فأخذ نفقتى الشخصية كطبعى منذ أحد عشر عاما ، وأعطيها الباقي . وتصرف هى معاشها ثم تتولى دفع الديون وإطعام الأسرة .

وفى ليلة من ليالى الشتاء طال سمرنا . ونبح الكلب فخرجت أنظر فلم أجد شيئا وحين عدت مسحت الطمأنينة معنى القلق من عيني أُمى . وكانت تعد على أصابعها مرات الاستغفار التى استغرقت فيها بعد ما ذهبت أجوس خلال البيت . فلما اضطجعت إلى جوارها ثانيا فى السرير ربت على كتفى تدعونى أن أذهب إلى النوم وتدعوى لى .
— بلدى يا ماما .

— بلدى من عمرى . اذهب ونم . فى المستقبل ستأوى إلى فراشك
بأكرا دائما . وبأكرا أكثر من اللزوم .

ولم أفهم :

— لماذا يا ماما ؟

— عندما يكون فى مخادع الأبناء نساء لا يطيلون السهر مع
أمهاتهم !!

قلت مهونا :

— أوه ... لا تفكرى فى هذا . لا يزال أمامنا شوط طويل .

— أريد أن أعيش حتى أرى زوجتك . ثقى أنه لن يخزنى ذلك ولن
أدافع إلا عن حقى المشروع فى قلب الابن . لن أحاول أن أستأثر بحق
غيرى أبدا .

وتكلمت أمى بخرارة كأننى سأزف بعد أيام . فعزوت هذا إلى قلق
ما ، وقبلتها فى جبينها وتهدت وأنا أقفل عليها الباب .

إن فكرة أن نموت ونحن لا نملك شيئا فكرة مخيفة . إحدى صورها
كانت تناوش قلب أمى فى وحدتها وأحلامها ، حين كانت تتخيل أن امرأة
ستستأثر بى . وقد يدخل عليها الموت فى الحجرة المظلمة ذات ليلة وأنا
أناغى فى حجرى امرأة أخرى . وأظن أنه لو كان لها ابن أو اثنان غيرى
يعيشون معها فى البيت المحتاج الآن إلى ترميم لتغير الموقف .

كنا نأخذ أنفاسنا بارتياح نوعى ، ولو أننا كنا مثقلين بالديون فى سبيل
الجهاز ، كنا كالجائع المرح يسد رمقه ويعنى . نأخذ من الحديقة خضرا
وفاكهة ونشتري من السوق خبزا ولحما . أشبه ما نكون بالغنى الذى لم
تفن بعد ملابس عزه . وزمام نفسى وقلبى فى يد أمى وأخبار زينب

منقطعة عنى . وأخبار أمها منقطعة عن أمى . والحياة كأنها حذر .
والإحساس كأنه بداية سكر !! ..
ونعمنا بهذه الفترة عاما استيقظنا بعده على طرفة :
— من ؟

— خطاب مسجل .

— من الذى أرسله ؟

— زيد ابن عبيد أو فلان بن علان صاحب البيت الذى يقع بابه فى
الشارع الموازى لشارعنا ويستند ظهر بيته إلى ظهر بيتنا ، يخبرنا أو ينذرنا
أنه سيهدم بيته ليبنى عمارة كبيرة ، وعلينا أن نتخذ الاحتياطات لبيتنا حتى
لا ندعى عليه فى المستقبل بشيء .

وأسندت أمى ذقنها على قبضة يدها ثم رفعتها وعضت إصبعها
السبابة :

— تفسر المنام !!

— أى منام ؟

— رأيتنى جالسة فى الليل وراء ستارة فيها خرق واحد أنخبط عليه
رقعة . وكنت كلما سادمت الخرق بدا على مقربة منه خرق جديد والإبرة
فى يدي وعينى متعبة ...

— لا تنزعجى . تمشى كما تمشى . لا ينبغي أن نموت !!

فنظرت إلى فى رثاء وكأنها تتوجس شرا . وفى هذه الليلة جهزت لى
عشاء سخيا وجلست تطعمنى بعرص وإصرار كأننى مسافر وهى خائفة
على من الجوع . وكنت أحدثها طويلا وهى شاردة حتى بدت أكثر
ثرثرة وبدت أكثر صمتا .

ولم تجد الاحتياطات التى اتخذناها بالنسبة إلى البيت . فقد تفاقم الصدع . وألقينا نفسنا مضطرين إلى أن نبيع أو نهدم أو نبني أو نرمم . وأغلقت الأبواب فى وجه أمى خصوصا لأنها كانت قد استهلكت قواها ومدخرها فى تجهيز بدرية فرأيت حتما أن أعرض بخدمائى لأنقذ الموقف .
— نستدين بفائدة وعلى أقساط يا ماما . إن أمكن .

— ممن يا بنى ؟

— من الذين يقرضون الناس .

— حسن ليت ذلك ممكن .

قلت بحماسة الجندى الذى حجز عن القتال وهو فى الميدان :

— اتركينى إذن .

— تركتك . بدأ كل منا يكبر . أنت تشب وأنا أشيخ .

قلت «لعم السيد» فى الصباح التالى وأنا فى الإدارة : رأيتك تتوسط كثيرا فى تفريغ ضائقة الموظفين يا عم سيد وهأنذا جاء دورى .
فضحك الرجل بخنان من يعرف مرارة اللواء واحتياج المريض فى وقت واحد ، وأبدى استعدادة للخدمة . ولما عرضت الشروط على أمى ظهر ذلك اليوم وافقت موافقة المضطرين والقلق من المستقبل يبدو على حركاتها .

وقادنى عم سيد مساء اليوم التالى إلى الحيزة . إلى منطقة نائية تفرق فيها المساكن تفرقا غير ملموم على أرض لا تزال عليها آثار الزراعة . وفى مسكن لم تلاصقه المباني بعد ، جديد صغير ذى طبقة واحدة تقابلنا مع من دعاها عم سيد ونحن فى الطريق : بالست جليلة .

كان كل منا يفحص الآخر بنظرات طويلة أنا وهى ... ودعت عم سيد إلى الداخل كأنما ليتأكد منه أن (هذا الشاب) لن يسبب لها متاعب . وأن عم سيد مسئول أن يأخذ القسط أول كل شهر من مرتبى ليوصله إليها .

وسمعت أن لها فى كل مصلحة سمسارا وأنها لذلك قلما تلجأ إلى القضاء . وأخذنا منها مبلغا يعتبر كبيرا بالنسبة لحالنا . وأخذنا نرم البيت ولقينا فى سبيل ذلك عناء لا يوصف .

وأحسست بحسرة تفوق حسرة أمى حين أشار علينا أحد العمال بلهجة الناصحين أن نهدهم أو أن (نسقيه) لأحد المشتريين بواسطة سمسار ماهر . لأن بناءه كقطعة السكر المبلولة .

وضحك العامل عن أسنان صبغها الشاى فكأنما أغمد فى قلبى خنجرا صديقا .

كانت هذه القضية بالنسبة إلى لا تعنى شيئا ، فماذا لو تخلصنا من غير الصالح فى حياتنا كلها ؟! لكنه كان بالنسبة إلى أمى ذكريات ضخمة ... ترى ملاحح حياتها فى كل ركن فيه . وأكدت لى ذات مرة أنها تسمع على سطحه وقع خطوات أبى . ولم يكن هذا يعادل أنه يؤوينا من الشريد . لكن ذلك عنى أننا غرقنا فى الديون . رأسنا فى الهواء الطلق وجسمنا كله مغمور . وكثر تردد بلدية على بيتنا وكانت تفضل أن تبيت عند أمها بعض الليالى ، لأن معها طفلة سقيمة كثيرة الأمراض . وبدأت أمى تعيد تاريخ الحنان من أوله لأن « أعز من الولد ولد الولد » . وخرجت مسائلنا أنا من بؤرة الشعور فابتعدت نحو الحوافى .

وسألت نفسى فى يوم من الأيام . متى ستقلع هذه الفتاة من أرضنا ؟

إنها تجدد جذرا كلما جف جذر . وتربص بزرعنا كما تربص
الجرادة . بنتها تصرصر في الحجر الأخرى طول الليل وتبكي بخرقه كأنها
سلبت شيئا . وقد نجىء رشدى ليأخذ زوجته فيتأخرون في السهر
يفضلون أن يبيتوا حتى الصباح . وأمى تبذل من الحنان فائضا أنا محتاج
إليه . لكننى لا أستطيع أن أحزنها . وفي كل أول شهر تنهال
الاستقطاعات على مرتبى بشكل جعلنى أحس كأننى أطعم قوى
مجهولة . فأنا رجل قليل النفقات أو معدومها إذا كان ذلك ممكنا . وأمى
تحتال بشتى الوسائل لشترى الدواء . لأنها بدونه ستوقف كما تتوقف
الآلة ، حتى فترة الحذر وبداية السكر ، حرما منها فلم نظل أكثر من
عام . بعده بدأ جارنا يبنى والست بدرية تلد . أما أنا وأمى فليس في حياة
أحدنا لا بناء ولا ولادة !!

وأصبت ثانيا بطوفة من الضجر والملل وعاودنى الشعور بالحرمان ينز
في إحساسى كأنه المبرد . وعادت زينب إلى أحلامى وفكرت في أن أذهب
إليها ... وتذكرت وأنا في الطريق الست جلييلة . المرأة الجميلة في خريف
العمر . وجعلت أوازن بينها وبين الفتاة التى استعدت مرارا كثيرة لأن
تهبنى . أين هى الآن ؟ كنت أعتقد أنها ليست فرصة لكن الحوادث تنخر
الآن في عقيدتى .

ومن خلال الجمع الخطير في ميدان السيدة رأيت ذات يوم ظهر فتاة
تلبس السواد إلى جانب رجل يبلو كأنه برميل . طربوشه إلى الوراء
يتأرجح زره . وبطنه إلى الأمام وظهره مقوس . وافترضت أنهما هما .
زينب وزوجها . لكن العود نحيف والشعر أطول والقامة أكثر امتدادا .
كانت قصيرة مكتنزة فيما قبل مثل الست جلييلة أما هذه فليست كذلك .

وحشت خطاى حتى أدر كتهما فإذا نى أرى وجه زينب حافظا ملائحه
فاقدا تعبيره خاليا من المساحيق لأنه حزين .

وحملت فيها فأهدت إلى نضرة رادعة وزوجها إلى جانبها يمشي
كاللدجاجة البيضاء وجهه محتقن غليظ خشن مغفل . ولم أكلمها
ولم أبتعد عنها ولعل ذلك حملها على أن تلقى إلى ببعض أخبارها لأنصرف
فسمعتها تقول لزوجها :

— هذه عيادة الطبيب الذى عالج ماما رحمها الله ... إنه بارع يا حاج .
فتكلم وكأن فى فمه لقمة :

— آجال ... أعمار !!

وانفتح باب الحديث بينهما :

— لو أنها عاشت قليلا لأدر كنت خطبة أخى الكبير يا حاج ...
— أعمال آجال ...

— والغريب فى الأمر أن أخى الصغير انصلح حاله بعد موت أمه ...
(ومصممت بشفتها) ناس يفسدهم الحنان ..

ونظرت نظرة جانبية .

واستطرد زوجها وكأن فمه محشو بشيء :

— أهوال ... أحوال !!

قالت وعلى فمها خيال ابتسامة :

— أهوال صدقت يا حاج . لا فائدة . النسيان أحسن .

ثم انخرقا إلى أحد الشوارع فتراجعت إلى الميدان وهناك وقفت تحت
عمود الساعة أسألهما فى حلق صامت عن قيمة الزمن هذا الذى نحسبه آناء
الليل وأطراف النهار ... حتى ولو بالنسبة إلى !!

وغاب عم سيد عن الإدارة أول الشهر التالى لأنه كان مريضا . فوجدت نفسى بلا مراوغة أحمل المبلغ المعهود وأذهب به إلى الست جليلة . كان الوقت ليلا والحى غير مضاء . وفى الأرض حفر بعضها رطب وبعضها جاف وحين طرقت الباب فتحت لى صبية فى السابعة من عمرها بديعة التقسيم وفسحت لى سبيل الدخول حين سألتها عن أمها ، وسارت أمامى وهى تعرج .

وجلست على كنبه بعد المدخل أمامها أرض مكشوفة ولم تلبث الست جليلة أن جاءت من الداخل .

لم تكن كريمة الوجه ولا سيئة الطباع كما يتبادر إلى الذهن عن امرأة تقرض بالربا . بل كان كل شيء فيها هادئا متريثا حذرا كأنها تخاف أن تخطئ . وجهها المستدير كأنه رسم بالبرجل وفى عينها وميض قلما ينطفئ .

جاءت تمشى ببطء وسلمت ببطء وهى تبسم ثم جلست على الكنبه على بعد منى — ببطء شديد . وذراعاها متربعان على صدرها ونظراتها إلى قدمها نحو الأرض . وقدمت إليها المبلغ فأخذته بطريقة لا مبالاة فيها ثم قامت إلى الداخل لتحضر الكميالة ، فأتاحت لى فرصة أن أتفحصها وهى مدبرة . عودها قصير لين مفصل وعجيزتها تميل إلى الامتلاء وضفيرتان من شعرها كانتا مستقرتين وسط ظهرها .

واستأذنت بعد أن أخذت الكميالة لكنها سألتنى بلطف أن أبقي حتى أشرب القهوة وكان طبيعيا أن أعتذر وأشكرها .

وجعلت أسأل نفسى وأنا راجع لماذا لا يبدو شيء من القسوة على ملاحظها ؟ إن بعض الرذائل يستلزم بعضها آخر منها ، وحتى الجحرف

المشروعة تعطى أصحابها طابعا معيناً ، فلماذا لا تبداً على وجهها
القصة ؟!

ولما وصلت إلى الشارع غمر في النور فنسيت أمرها وتذكرت حالتنا في
البيت :

باتت أمي تبكي بدموع حرة طول الليل : لأن بنت بنتها مريضة
ورشدى رجل وديع يقيم حيث تقيم زوجته . ولما عبرت العتبة كان وجوه
غير عادية يقيم على أنحاء البيت . وصهرى راقداً في السرير مملوط يلمظ
بعد أن فرغ من الأكل . والأم جالسة وفي حجرها الطفلة ، وبدرية تحمل
خدها على كفها . كنت جائعاً فلم يسألني أحد عن طعامي ، فقررت أن
أدخل فوراً إلى غرفتي . وترك هذا في نفس المرأتين أسى وعتاباً لأنني لم أبدأ
اهتماماً بالطفلة المريضة !!

وشيثاً فشيئاً نسيت الإحساس بالجوع وألقيت سمعي إلى اصطفاق
الأغصان وجعلت أفكر في أمر نفسي تفكير رجل يريد أن يغير ما حوله :
— لا بد أن تتغير هذه الحال . يجب ذلك . ولكي يتحرر السائل
المحبوس ينبغي أن تتحطم الزجاجاة مادام من غير الممكن أن ينفث
سداها ...

وتنهدت . وحاولت أن أحدد نقطة المسؤولية . النقطة الحقيقية التي
تلور حول مأساة حياتنا التي تنمو كأنها نبات متحجر .
فلم أر مسئولاً عن ذلك كله إلا الخوف . أنا خائف من أمي وخائف
عليها وأمي تبادلني نفس الشعور . لذلك اشتركتنا معا في دق الأوتاد
وربط نفسنا إليها ، واستفاد من هذا الرباط ناس آخرون غيري وغيرها .

— لا بد أن تتغير الحال بضربة واحدة . تأتى من يد لا يجزئ أحد على لومها ، ولا ردها ...

وتنهت مرة أخرى وتساءلت ما الذى يجعل بدرية تكف عن استغلال مواردنا المعصورة ، إلا أن تموت أمى ؟!

وأنت الطفلة فى الحجرة البعيدة أنينا مسموعا ترددت بعده فى الصالة خطوات تروح وتجيء كأنما لتحضر شيئا لها . وتخلت مع هذه الحركة أن أمى خارجة من البيت محمولة للمرة الأخيرة وأننى سأكون وحيدا بعدها مستقلا لا أسمح لأحد أن يدخل على ... فوجدت الفرق بين الحالتين هو الفرق بين غراب وغراب . فتحسرت وانتقل خاطرى إلى شخصية شاب قرأت عنه أنه هرب وحيدا لا يملك شيئا إلى إحدى البواخر التجارية . وظل يؤدى فيها من الأعمال ما يساوى أجر ركوبه ، حتى هبط أوروبا فعاش وتعلم وعاد إلى وطنه شخصية مرموقة . أى قلب يملكه هؤلاء الناس . حرام أن يكون مثلهم طعام للفناء . أما أنا ...

ورحت فى النوم شيئا ما والأغصان تصفق على مقربة من نافذتى ، والكلب ينبع بعض الوقت ويكف . فرأيت فى غفوتى ثلاث نسوة . امرأة تباع الهوى فى صدر شبانى فلم أستطع أن أشتري منها ، وشيعة ليلتذ إلى الباب بسخريه مريرة . وفتاة قريبة العهد كانت تريد أن تهبنى الحب فلم أستطع أن أمد يدي إليها ، فودعنتى باحتقار ورضيت بزواج كانت تعده تعاسة . وامرأة كانت عندها منذ ساعات قلائل صممتها بخيال ألف مرة وهى تمشي أمامي ثم عدت من عندها بخزن مبهم ...

واستيقظت على حركة أخرى ثم رحت فى النوم . وعند الصباح خيل إلى أن أمى وأختي ساخطتان على سلوكي . ثم كان البيت وقت الظهر

نـاليا من الضيوف تماما ، وعلى وجه أسمى علامات ضيق من الممكن أن
تتحول إلى شجار لأى سبب فحاولت هذه المرة أن أكون شجاعا .
جلسنا نتغدى فى صمت لا تسمع فيه إلا حركات الملاعق وأماننا
طعام ملفق لا يفتح الشهية . وأدركت أسمى أنسى لن أبداً بالحدث
فقصدت أن تكون البادئة :

— لماذا لا تسأل عمن كانوا هنا ؟

فقلت ووجهى إلى طعامنا يبرود غير مألوف :

— لأنى أعلم أنهم صاروا هناك ؟

— بدأت تتغير !

— كل يوم هو فى شأن !

— تذكر رضاي عنك وحاول ألا تكتم عني شيئا .

فنظرت إليها نظرة فارغة وكأنا لا تربطنا ذكريات وقلت لها :

— أنا لا أملك شيئا أخبئه عنك .

— لست الأمر كذلك .

— أنا لا أملك إلا حياة فارغة لا تساوى همها .

فأجابت مرتاعة :

— هل أنت ضجر إلى هذا الحد ؟! لم يعد هناك ما يستحق الضجر

يا بنى ... الاثنان عدد ينقسم بسهولة . هل أنا عبء عليك ؟

— لست عبئا على أحد ...

— ليتنى مت قبل أليك فارحت من العناء .. أنت بحاجة إلى امرأة .. تزوج

يا بنى فأنا لا أسد طرفك . لم أعد محتاجة إلا إلى جرعة من الدواء وكسرة

الخبز . ومعاشى يكفى لذلك . أما الديون فقد كانت من أجلكم أنتم ...

وظللنا صمت اندفعت بعده أقول بصوت مرتفع وكأننى أخطب غير
أمى :

— خلاص ضجرت من هذه الحياة . لقد اتخذت قرارا نهائيا ...
ولعل التصميم كان باديا فى وجهى بشكل لا يقبل الشك . ويثير
الجزع والخاوف . قالت أمى بنبرة أشد عطفًا ولينا :
— طيب وعلام عزمت ؟

فرددت بصوت أكثر ارتفاعا كأنما لأسمع جميع الناس :
— على الانتحار ... على الموت ... على أن أقتل نفسى . هل فهمت
الآن ما الذى أنوى عليه !؟

وهبط الصمت مرة أخرى . وانسحبت أمى كأنها مجروحة ، وبقيت
جالسا وحدى على المائدة بعد أن خلعت من الطعام تقرىبا ؛ أحس سخونة
الغضب على شعمة أذنى ، وأراقب ملعقتها فى الطبق بعد أن تركها مملوءة
بالكشرى فلم ترفعها إلى فمها حتى لا تفوتها فرصة الفرار من تهديد ابنها
ووعيله ...

وارتديت ملابسى ثانيا وخرجت . أما هى فقد كانت فى غرفتها المغلقة
وخيل إلى وأنا أعبر الباب الخارجى وأرفس الكلب وهو يتمسح بى أن
عينها تودعانى من خلال زجاج إحدى النوافذ .

وأخذت أصعد الطريق المؤدى إلى الجبل حيث يقعد المرصد وخزان
المياه . والشمس ربيعية لينة لم تقس بعد على أحد . وبعض نباتات
وحشائش تنمو على يسار الطريق لكثرة تدفق الماء من المضخة الثالثة
الواقعة على المرتفع . وكانت هذه الأعشاب على تفاهة فصيلتها تشارك فى

الوجود وتبشر بالربيع الوافد بأزهار ملونة على قدر حالها . والجو — على العموم — قادر على أن يواسى المهموم .
وأخذت ألهث فوقفت أستريح . كان ظهري إلى الطريق حين وقعت عليه كف يميني صاحبها إلى وجوده ... وعرفته من خلال صحة تالفة .
وبادر شيب يلعب على فوديه . أحد زملائي في المدرسة كان هابطا من أعلى وفي يمينه صبي ابن ثمان سنوات ، صورة واضحة مهذبة من أبيه .
ووقفنا برهة نذكر الماضي ثم عرجنا على الحاضر فسألني عن حالي ، وقال :

— هذا ابني ... هلم ... هل عندك عروسة تناسبه ؟

— ولا عريس !

— أوه ... لم تخلف بعد ؟!

— ولم أتزوج .

فقال بأسف من فجع في أمل كان محققا تماما :

— يا شيخ !! ... حرام !! ... (ثم أردف ضاحكا) : أطلق

سراحه من أجل خاطري . أطلق سراحه .
فسألته :

— سراح من ؟!

— سراح ولدك الذي تحبسه في ظهرك . من الجائز أنك تسيء إلى

البشرية إساءة لا يغفرها الله .

وفطنت فجأة إلى أنه انتقل من المزاح إلى الجد وكان يمسك بذراع ولده

جيدا كأنه خائف أن يفر . فقلت له بلهجة المكسوف :

— كيف تتكلم ؟ ما هذه الإساءة التي لن يغفرها لي الله ؟

— من الجائز أنك تحبس في صلبك إنسانا لو أطلقت سراحه لعاش
حتى يخفف عن البشرية آلامها بمخترع من المخترعات .

قلت يائسا :

— غريبة ؟!

فاستطرد بحماسة :

— إنهم يعالجون المجانين في المستشفى بطريقة تثير الجنون . الناس
محتاجون إلى عقول فذة ... فأفرج عن ولدك أفرج عنه !
وضحك عاليا وهو يشد على يدي مودعا . ثم هبط المنحدر وابنه في
أعقابه ونظراتي تلاحقهما وتدعو لهما . ولما غابا عن بصرى استأنفت
صعودي وأنا أستعيد كل كلمة من كلماته ...
آه ... لاشك أنه سعيد !! .



١٤

وظل الخصام بيني وبين أمي قائما ثلاثة أيام ، حدث هذا للمرة الأولى
في حياتنا . وفي اليوم الرابع أعلنت أنها ستبدأ في خلع أسنانها بعد أن
تصرف معاشها الشهري لأنها لم تنم من الآلام طوال الليالي التي مضت .
فأجبت باختصار :

— سلامتك .

فسألت بذل :

— هل تحرص على سلامتي ؟!

قلت وأنا مطروق :

— طبعاً !

— أخاصم أمك ؟ كنت كلما أحسست أن قلبي بدأ يغضب عليك
ابتهلت إلى الله أن يرعاك . يا عيني الواحدة التي أرى بها الدنيا ..

وكضمت غيظها وكتمت أنفاسها واغرورقت عينها القويتان
بالمدموع . وكان وجهها شاحبا طويلا تبلو عليه — حقيقة — علامات
الارتباك . فأحسست بجرمي واضحا فانفجرت أبكى .

— أتبكي أيها الرجل ؟! ... ماذا تركت إذن لأملك ؟!

واحتضنتني كأنني عدت طفلا . كان الوقت ليلا ، ونحن لا نزال على
المائدة بعد انتهاء العشاء . ولم يكن هناك فرصة لاجتماعنا أيلم خصامنا
إلا في ساعات الطعام ، وبعدئذ كنت أخرج أو يأوى كل منا إلى غرفته .
ولم نترنا بدرية منذ أسبوع وكانت أسمى تذهب إليها للسؤال عنها .

وقادتني من ذراعي ودخلنا إلى غرفتي . وجلست على الكنبه ورقدت
واضعاً رأسي في حجرها . ومالت تتحسس شعري وتناجيني :

— حاول ألا تعتقد أنني ظلمتك يا قواد . ربما أكون قد حايت .
أختك شيئا ما . لكن أنت تعلم أنها طماعه ...

ثم سكبت ويدها لم تسكت عن العبث بشعري . وألقت نظرها إلى
النافذة وجعلت أنا أنظر إليها وأفكر : « إنها تريد لحياتها ختاماً هادئاً . هذا
كل ما يشغل بالها . وترى أن الهلوع والطمأنينة لا يكونان إلا تحت
جناحي . لذلك هي تحرص على » . وقطع صوتها خيط أفكارى حين
قالت بحماسة :

— لا بد لك من الزواج . لن أستطيع أن أراك عازباً بعد اليوم .

— إننا مدينون .

— هناك . هناك أشياء إن فكرنا في تفاصيلها كان من المستحيل أن
نعملها ... سأبحث لك عن بنت الحلال أولاً وبعد ذلك ندبر الباقي .

— آه ... وأين بنت الحلال ؟

— محجوزة لابن الحلال . وأنت ابن حلال .
ثم شردت وعادت تسأل :
— ألم تعد تسمع شيئا عن فاطمة هاتم ؟ ... رحمها الله ... أقصد عن
بنتها زينب ؟
فأجبت بخنر :
— أوه ... تزوجت من زمان !
فابتسمت ابتسامة غامضة :
— إنه النصيب . على كل حال سأبحث حالا عن الفتاة التي تناسبك .
ليتك أحبيت وتزوجت وأرحت بالى من زمان !
ولم أرد عليها لأننى رثيت لها فقد بدأت تعتبر الأشياء التى تركناها
بمحض إرادتنا أشياء نادرة وفرصا . وهذه أول مراحل الندم .
ثم أحبيت أن أجراها إلى المهر لأعرف ماذا يمكن أن نصنع .
فقلت لها فى شبه مزاح :
— الفتيات كثيرات يا ماما والعبرة بالجنهيات .
فأجابت بحماسة المقامر الذى يخلع خاتم الخطبة بعد أن تفرغ نقوده :
— أبيع البيت ، أو على الأقل .. نصيبى فيه .
واستطردت بعد صمت لم أتكلم فيه ..
— ومن الجائز أن تأخذ ترقية . ومن الجائز أن يأتينا رزق لم يكن فى
حسابنا . على أنه يجب أن نشرع فورا فى البحث عن الفتاة . فؤاد ...
يجب أن أزوجه قبل أن أموت !!

* * *

وركبنا القطار عصر هذا اليوم ونزلنا معا إلى العاصمة . وفي مرآة صالون حلاقة على واجهة المحل رأيت شبحي جنب شبح أمي . لكأن المرايا خارج بيوتنا أصدق تعبيرا من المرايا التي نقتنيها . خيل إلى أنني وهى شخصيتان تثيران القلق والرثاء عند العقلاء ، والضحك عند العاديين من الناس . لماذا يمسك كل منا بالآخر بهذه الطريقة ؟! إن كفها العجوزة ينبغي أن تمسك بيد أحد أطفاله لأن كفى لم تعد صالحة لأن تدلل وربما كان ذلك كله أو هاما ...

وذهبت إلى الإدارة وذهبت هي إلى طبيب الأسنان . ولما انتهيت من عملي لم أعد إلى المنزل فورا بل قصدت إلى منزل الست جلييلة لأستشيرها في أمر خطر على بالي .

وجدتها في الداخل تتناقش مع بعض النسوة ، وكان صوت إحداهن يأتي عاليا حادا متلاحق الكلمات . وكن يتناقشن حول نقود . وكنت جالسا حيث جلست في المرة السابقة على الكنب في مدخل البيت . وعلى مقربة مني جلست الصبية العرجاء التي عرفت منها أن اسمها (عزيزة) وإلى جانبها أخوها الأصغر في الخامسة من عمره أو السادسة على الأكثر ، وعرفت أن اسمه (نبيل) وجعلت من الصغيرين تسلتي حتى تفرغ أمهما من شأنهما وتخرج إلى . كان بين يديهما أحد كتب القراءة المقررة على الأطفال ، وكانا يتنافسان في القراءة فيه وكثيرا ما كانا يخطئان معا أو يعدلان المصيب منهما إلى رأى المخطئ بطريقة بريئة تثير ضحك الكبار . ولما طالبت جلستى نوعا فضلت أن أتسلى معهما . جلست الصبية إلى يميني وجلس الصبي إلى يساري وابتسام وطيبة أنسا لي وارتاحا إلى كأنهما يعرفاني من قديم .

وجلسنا ندرس ونمزح ونبتسم . ومر بنا في هذه الجلسة ثلاث نسوة خلفهن الست جليلة . ودعتن إلى الباب ورجعت لا تحفى في عينها الدهشة لحضورى . وسلمت وجلست ببطء شديد وذراعاها متربعت على صدرها والصبيان واقفان على مقربة منا في عيونهما ترقب للأوامر ورغبة في أن يعودا إلى ما كانا فيه . وعلقت أنا على عملهما بكلام يرضى الأمهات . فوصفتما بالذكاء وبأن شيئا من الرعاية قد يخلق منهما تلامذة ممتازين . فلمست قلب الأم .

ولم أر في عينها هذا المساء نظرات الخذر . وكان الصمت الراقد على شفتيها — بطبعها — كأنه قفل ، يوحى أنه على وشك التحطم . وأحسست أنها مستعدة لأن تقول شيئا على شرط أن تكون الفرصة ملائمة . وعاد الطفلان فجلسا على القرب منا ورجعا إلى ما كانا فيه . والتقيت بالأم وجهها لوجه ووجب أن أقول لها لماذا جئت وسألتها :
— إننا نتعامل منذ أكثر من عام يا سيدى ، فهل أنت مرتاحة إلى معاملتنا ؟

— من غير شك ...

ونظرت في عينها في هذه اللحظة فخيّل إلى أن فيهما حسن استعداد .
— ماذا يكون رأيك لو أننى طلبت مبلغا جديدا ... إنه ... غير إنه ... مبلغ صغير ... صغير جدا .

فلم ترد على . غير أن وجهها لم يكن مطبوعا بطابع الخوف ولا بطابع الضجر ، ثم ردت بنجواب بعيد عن سؤالى :
— هل رأيت هؤلاء النسوة اللاتى خرجن منذ وهلة ... لقد عجزت أن آخذ من إحداهن حتى حقى المر !

- لا علاقة بين الشيعين يا ست جلييلة . ثقى لى !
— أنا أعلم ذلك .
- ثم سادنا صمت ، وجاءنا صوت (نبيل) يتهجى فى الكتاب ويتغنى
بمعونة أخته : أ .. ح .. ب .. أ .. مى . أحب أمى .
- ولما انتهى من الجملة لهث ومسح أنفه وكأنه عبر النيل . فابتسمت
ونظرت إليه من بين أجفانى نظرة كأنها تحتضنه . ولعل الأوبة « الموقوفة »
كانت بادية فى نظراتى كما يبدو النهار ، وعلقت الست جلييلة وهى تنظر إلى
ابنها قائلة بلهجة واثقة لكنها لا تخلو من الأسى :
- صحيح يا بلبل ... هل تحب أمك ؟
- فضحك الصبى ضحكة عريضة ولم يجب كأنه يسخر من أوهاماها ،
ثم انكب يقرأ من جديد وعلقت أنا على الموقف :
- ومن هذا الذى لا يحب أمه ؟ خبرينى بنقى ، هل يوجد شخص
على وجه الأرض لا يحب أمه ؟
- قالت وهى تسند ظهرها إلى الوراء على الكنبه العريضة :
- لا بد أنك تحب أمك جدا ... هل تتمتع بحياتها ؟
- نعم .
- دام عزاها عليك ودام عزك عليها ، إننى لم أشعر بهم أولادى إلا بعد
وفاة أمى وأمهم ، وأنت ألا تشعر بذلك ؟
- ليس لى أولاد .
- فأجابت ببساطة :
- لا ضرر .. غدا يعوض الله عليك . منذ متى وأنت متزوج ؟

فاحمر وجهى وخيل إلى أننى فتاة فاتها السوق ، وقلت بصوت لم يخل من اضطراب :

— منذ متى ؟ . منذ ... منذ ... إننى لم أتزوج حتى الآن !

وضحكت معى ببطء وهلوء ووجه محمر . ثم قالت :

— لا ضرر أيضا . أنت لا تزال فى عز شبابك . كل إنسان له من الأعذار ما يكفى لتبرير موقفه ...

— صحيح . إنك سيئة طيبة . يخيّل إلى أن مستقبل حياتك خير من حاضرك بفضل أحد هذين الطفلين .

فأصغت كأنها تستمع شيئا جديدا . تطاير جزء آخر من الحذر الذى يلبو فى عينها . لعلها لم تسمع مثل هذا الكلام من قبل . بل لعلها لم تسمعه من شخص مثل وبمثل البساطة التى سقته بها .

سألتنى بدورها :

— هل لك إخوة ؟

— معنا فى البيت ؟ لا . كان لى أخت وتزوجت وانتهى الأمر .

فقالته بلهجة الخبيرات :

— إذن فأنت تعيش مع الوالدة فقط . آه ... كان الله لها يوم تدخل بينكما امرأة جديدة !!

— أمن الضرورى أن يحدث هنا دائما ؟!

— غالبا ما يحدث .

— يفعل الله ما يشاء . هل نعود للموضوع ؟

— موضوع النقود ؟ أرجع بعد يومين فليس عندى الليلة كلمة نهائية .

— شكرا .

قالت برقة :

— العفو .

ونظرت في عينيها جيذا وأنا أسلم وملت على الصغير فقبلته وأوصيته
بالاجتهاد وربت على خد البنية .

* * *

وسهرت أمى تحكى عن كل ما صادفها في عيادة الطبيب وتعلق على
آلام الناس بطريقة من يريد أن يتسلى عن آلامه . ووجدت في هذه الليلة
خبرا سعيدا استطعت أن أرفه إليها :

— بلغنى الليلة وأنا في الإدارة يا ماما أنه من المنتظر أن يلحقنى
الدور ؟

فهتفت كأنها لا تصدق :

— فى الترقية ؟!

— نعم فى الترقية .. إلى (السابعة) العزيرة ؟

فكادت عيناها تدمعان :

— دعائى لك !!

ولم تطفن الأم إلى أن الله ظل يستمع إلى دعائها فى هذا الشأن ثلاثة عشر
عاما ، وأنه ربما لم يمن على بهذه النعمة إلا لتكف أمى عن الإلحاح . ثم عدنا
إلى وصف ما لقيناه فى الخارج وكان أهم ما شغلها تلك السيدة الوسيمة
التي صادفتها هناك وعلامات الثراء البادية على هيئتها . ثم استطردت
أمى :

— عندما تتوطد العلاقة بيننا شيئا ما سأسأل عن أولادها .

وفهمت قصدها : ثم قلت :

— إذا سارت الأمور على ما يرام فعندى فكرة ربما تروقك .

فأصغت بطريقة تدعو إلى التشجيع فاستطردت وكأننى أمزح :

— ماذا لو منحنا العلاوة الجديدة التى سأناها للست جلييلة نظير مبلغ

صغير نأخذه منها ونقدم به (شبكة) لإحدى الفتيات ؟

— رأى حسن . وهل توافق الست جلييلة ؟

— الجواب عندها لو سأناها .

وسمعتها تنهد وانكبت على معطفها تركب له بطانة بعد أن نزعته عنه

البطانة البالية ، أما أنا فقد صرفت عنها نظرى مخافة أن أرى على

وجهها — ولو وهما — أنها غير مقتنعة وأنها تجاملنى فحسب .

وحل الموعد المضروب فذهبت إلى مسكن الست جلييلة . كان الجو

مائلا إلى الحرارة . وتراب الحى الذى لم ترصف أرضه يعقد على ارتفاع

غير منخفض سحابة ضبابية خفيفة . ولما طرقت الباب فتحت

(عزيزة) . وكان أخوها واقفا إلى جوارها أسمر مسمم الملامح كأنه

قطعة من الشهد . وتعلق بئراعى وهو يسألنى عما إذا كنت أملك كتابا

فيه صور جميلة فأهديه إليه ؟ فوعده به وأنا أبتمس ، ثم جاءت أمه فحالت

بيننا . وما لبث أن غاب عنا وذهبت عزيزة تجهز فنجالا من القهوة ، فى

اللحظة التى جلست الأم فيها على الكنبه ووجهها يحمل علامات التعب أو

التفكر . فقلت لأفتح باب الحديث :

— هل أنت بخير ؟

فأجابت وملاحظها لم تتغير :

— الحمد لله . (ثم أردفت وهي تبسم في استسلام وتقلب كفيها)
 نأكل ! ... نجرى في النهار . وننام في الليل !!
 — شأن كل الناس !
 — ليس كل الناس . لو لم يكن معي هذا الصبي وهذه الصبية
 لضحكنت من متاعب الدنيا .
 قلت في نفسي : إنها تشكو . هذه التي سميت إليها لتفرج ضائقتي
 لا تملك الآن إلا أن تبثي شكواها . إن ظروفها قاسية دفعتها حتما إلى هذه
 المعيشة . يا إلهي إن المتاعب إذا لحقت حياة النساء جعلت منهن كائنات
 يطلبن رثاءنا مرتين . قلت وأنا أتهد بعد أن تركت لنا الصبية فنجالين من
 القهوة ومشيت :
 — لا تغزني !! يكفي أنك سيدة وأنت حملت العبء كما يعمل
 الرجل !
 — أنت شاب رقيق الطبع .
 فاستطردت دون أن أحس :
 — لقد تركني أي رجلا ، أو على الأقل شابا يستطيع أن يكسب .
 تركنا وترك لنا . ولكنني مع ذلك .. تعثرت في الطريق .
 فانفجرت أساريها كأنما كانت آلامى (مسكنا) هدا من آلامها ،
 ونظرت بعينين أكثر قربا ومودة وأخذت فنجالا وقدمت لي فنجالا
 وجعلت ترشف ببطء وهي تنظر إلى .
 وبملا شك فيه أن كلا منا كان قد سى المهمة الأساسية التي التقينا من
 أجلها وكنت أنا أكثر نسيانا . هل جربت لحظة طمأنينة تخللت أيام
 مخاوف ، أو سنة من النوم تخللت ليلة أرق وألم ؟؟ كان هذا هو نفس

إحساسى . وكل ما فيها يؤكد أنها أنثى غلبتها الظروف فمنحتها حياة
شائكة الأطراف .

وظلت صامته ترشف وتنظر وكأنها تستريدى كلاما ، فقلت :
— الناس لم تجعل آخر الطعام « حلويات » عشا ...
فاستفهمت بسرور :

— لست أفهم !

— الختام الحلو ينسى متاعب دهر كامل . أليس من الجائز أن تكون
أيامك المقبلة كالحلويات فى آخر الطعام ؟

فانفجرت تضحك ، واحتقن وجهها فصار فى لون القرمز . وكان
هناك جزء من كتفها يبدو ناصعا عند سفح العنق ... يبدو من فتحة
الصدر العريضة . وشعرها الأسود كان شبه مغسول . ولما زالت آثار
الضحك عاد الهدوء فخيم كأنما لم يحدث شيء . تماما كما ينزل الصمت بعد
ضوضاء عنيفة . ونظرت وقالت :

— إن معاملتى للناس جعلتنى أكتسب خبرة أعرف بها نفوسهم .
يحدث مثلا أن يطلب منى رجل تبدو عليه علامات التدين — مبلغا من
المال ويقدم لى الضمانات التى أرضاها ، ولكنى مع ذلك أحس أنه مماطل
غشاش . وبمضى الزمن يصدق تخمينى . وقد يحدث ...

فقاطعتها ضاحكا :

— ترى من أى نوع أنا ؟

فأجابت وفى عينيها حنان :

— أنت ؟ ... ستعرف فيما بعد .

ثم قالت بعد إطراق :

— القصد ... عرفت طريقة معاملة الناس بعد أن دفعت ثمنها غاليا .
أندرى مثل أى شىء ؟ مثل التى فقدت بصرها فى شبابها فعلمتها الجلدران
وعثرات الطريق كيف تكتسب خبرة العميان ...

ثم ابتسمت فى يأس ونظرت إليها فخيّل إلى أن كل شىء فيها وديع ،
وأنها لا تمنع بتاتا أن أمسك كفها أو أتعسس شعرها . لكن تأملى لم يطل
فقد سمعنا دقة شديدة على الباب وأصوات صبيان مختلفة يرتفع فوقهما
جميعا صوت يقول :

— نبيل لسعته عقرب ... هناك ... عند مخزن الخرق والورق حيث
كان يلعب .

كانت عيناه السوداوان مليئتين بالآلم تنحدر منهما الدموع فى تلاحق
كأنما تسحها قطارة . وعليه جلباب بدت خطوطه سوداء تحت مصباح
الجاز الذى خرجت به إحدى النسوة من بيت قريب . وكنت أول من
وصل إلى الصبى فقد خرجت أعلو إليه وربطت ساقه بمندبلى . وحملته
على ذراعى فلف يديه حول عنقى وأخذ يتعجب . ولما تأملت وجهى فى
النور رأيت على خده لطفة صنعها التراب والعرق ، ومع ذلك نازعتنى
نفسى أن أقبله . وأخذ يتلوى بعنف كأنما حمله الحنان الجديد على ذلك ،
وأفهمت أمه التى بدا عليها الجزع أنه لن يموت وأن المهم فى الأمر أن نسعفه
بسرعة . واخترقت به أقرب طريق إلى الشارع الرئيسى لناخذ سيارة
أجرة إلى المستشفى وكانت هى من ورائى . وتبعنا بعض الصبيان مسافة
غير قصيرة ثم عادوا .

ولما استقر بنا الجلوس في السيارة صممت الأم على أن تنقل الصبي إلى حجرها . وكنت أميل عليه لأجس نبضه وكانت السيارة تميل بنا في المنعطفات فتلامس أجسامنا نحن الثلاثة فأحس أثر التلامس على الرغم من كل شيء .

أما المظهر الذي كان باديا علينا والذي يخصص عيون الناس في العادة . فتستببط منه العلاقات بين كل اثنين — فقد كان غير مريب . ومن المحتمل أن يكون السائق قد ظننا زوجين مع فارق في الطبقة ، بسيط جدا ، وفي السن أيضا ، لأنها تبدو أكبر مني بوضع سنوات . وهذا الصبي ذو الجلباب المخطط والقدمين المعفرتين بعد أن فقد شبهه أثناء الحادث ، جائز أن يكون ابني . فإن ملابسي ليست أنيقة ولا تدل على الرخاء ولا العيشة المرتاحة ، وليس هناك إلا وجهي الذي يدل على أنني اغلبرت من أسرة ذات عز قديم . من تلك الوجوه التي تشير إلى ماضٍ خصب وحاضر مجذب . وتثير في النفوس الحساسية شيئا من الرثاء .

وربما كان هذا لا يعنيك بقدر أن تعلم أننا وصلنا إلى المستشفى بعد ربع ساعة والتقينا بمرضة رقيقة ألقت علينا درسا في وجوب المحافظة على الأولاد . وكان يبدو أنها مرهقة من العمل ، إلا أنها طيبة القلب . ولم يخل الموقف من التلكؤ ولا ضياع الوقت حتى أخذ الصبي (المصل المضاد) فحملته من جديد وخرجنا إلى الطريق وناديت سيارة أجرة .

وكانت جلستنا ونحن عائدون أكثر طمأنينة وحلاوة بالتالي ... كان الصبي في حجرها وكنت أنا إلى جوارها . والعربة قديمة كثيرة التفزز يسوقها صاحبها ببطء وحرص . ولأمر لست أجزم به لم يوقد المصباح الداخلي . وكان (نبيل) يئن لكن بشكل غير متصل ، فكنت أميل

لأجس نبضه أو لأربت على خده أو لأعزبه عن آلامه . وبعد فترة ونحن
نعبر جسرا على النيل سألنى الصبى فجأة بنبرة يغالطها الألم :

— هل أحضرت لى الكتاب ذا الصور الجميلة الذى وعدتني به ؟
فسعدنا كأنما نطق للمرة الأولى وأدركنا أن هذا أول دليل على
السلامة ، وأن الألم لم يعد قادرا على أن ينسيه شئون حياته .

فعلت أقبل خده ... فى الظلام النسبى فى نفس اللحظة التى فعلت أمه
فيها مثل ما فعلت ، فتلاصقت خلودنا على وجهه واختلطت أنفاسنا
واستطاعت واستطعت أن نعبر فى صمت لا يوصف عن مقدار حاجة
كل منا إلى الآخر ١٩ ...

كان رأس الصبى إلى ناحيتي وهو مستلق فى حجرها وقد لفت ساقيه
فى شال قديم وعيناه تنظران إلى سقف العربة فأرى اتساعهما فى النور
كلما مررنا على مصباح . ولعله كان يتساءل من أين جاء هذا الحنان ؟
وكنت مستنلا إلى الوراء فى جلستى أنظر بشبه ذهول إلى الطريق وظهر
السواق وفخذى لصق فخذ الست جليلة ، ونحو اطرى تثب فى كل مكان
إلا « حلوان » حتى وصلنا إلى البيت .

لم يكن فى الحى صبيان ، فقد تأخرنا فى العودة ووجدنا (عزيزة)
قلقة بانتظارنا ، وذهبت تصنع لأخيها شرابا دافئا فى الوقت الذى نهضت
فيه مستأذنا للخروج . وتكلم الصبى يستيقينى فوعده بالعودة ،
ونظرت أمه إلى تحاول أن تشكرنى فعجزت عن التعبير إلا عينها . وفى
الشارع الرئيسى هبت على نسمة شمالية أيقظتنى من أحلامي فسألت نفسى
سؤالين لعلهما يجولان بمخاطرك :

« لماذا لم نتحدث عن المبلغ ١٩ ؟ » .

لأننى رأيت فيها فى هذه الليلة امرأة غير التى رأيتها من قبل .. ومعنى أكبر من النقود شغل خاطرينا .
 « وتكاليف الانتقال إلى المستشفى ١٩ » .
 ولم يكن ممكناً أن أقبل — ولو أننى محتاج إلى نقودها — أن تدفعها
 هى ، بل ولم أرها تحاول .
 وكانت مهذبة فى ذلك أو كانت حسنة الإدراك ، ودفعت أنا
 ما يقرب من ثلاثين قرشا ، كانت كثيرة على ؛ ولم يبق من الخمسين قرشا
 التى أخذتها لأشتري بها قميصاً إلا ريالاً ، وكان قطعة واحدة من الفضة
 رننته ليلتذ خمس مرات على أحد أحجار الرصيف !



١٥

— لماذا تأخرت هكذا يا بني ؟ قلت لك . البيت خال والصداع
ينسف رأسي بعد خلج الضرس . أخشى أن يكون الطيب أخطأ في شيء !
هل اشتريت قميصا ؟ ماذا قالت لك الست جلييلة ؟ عسى أن يكون الله قد
سهل ! .. آه سأقوم لأتمضمض .

بهذا كله هتفت أمي بعد دخولي وأنا جالس أنظر في صمت وابتسام
كأنني (مسطول) أو في معزل عن الحوادث . وحين رأيتها عازمة على
القيام للمضمضة تطوعت فأسرعت بالذهاب لتجهيزها . ورجعت إليها
باللواء ومعه وعاء فارغ ثم تركتها وذهبت إلى حجرتي لأكمل خلج
ثيالي .

كانت راقدة في الفراش مرتفعة الحرارة شيئا ما ، ووجهها شاحب وفي
خدها نقرة صغيرة ، وجلست على الكنية ونظرت إليها فلم ينبض قلبي
بعنفه المعهود ، كأن شيئا من الحنان قد غاض منه ، وتأملت ، حاولت

بينى وبين نفسى أن أستنهض روافد الحب بالنسبة لأمى ، وأن أتأكد من قوة تدفقها القديمة فذهبت جهودى هباء . فتألمت مرة أخرى .
 وفى هذه اللحظة التى سألتها فيها عما بها تركتها تخب وانصرفت إلى أعماق أفتش عن جواب لهذا الموقف . « ليس من الممكن أن نفصل الحب عن الحاجة بتاتا ، فلو ألغينا من الأمومة درها وحضنها وحرصها المتطرف ، وجعلنا العلاقة بين الوالدة والمولود مجرد وضع الجنين لتحول الرقم إلى صفر . فالحب فى كل صورهِ حاجات وذكريات يا أماه !! » .
 وتألمت مرة ثانية لأن (حاجة) أقرب إلى الطبيعة ، وأدنى إلى العرف بدأت تزعج أمى عن موضعها فى نفسى . هناك فى الجيزة امرأة شعرت الليلة أنها على استعداد لأن تسكن آلام نفسى بطريقة جديدة على ، وإن كانت فى قدمها ترجع إلى بدء الخليقة . وبسبب هذه اللحظات التى قضيناها فى المركبة لم تقلبنى آلام أمى كما كان يحدث فى العادة .
 يا سلام !!

إن علامات التغير الليلة واضحة على ملامح حياتنا !

— سلامتك يا ماما !

وقلتها بتأنق وتحنن شديدتين حرصا منى على أن تصدقنى أمى فردت على بالدعاء لى : بأن يسعدنى الله ، وأن تعيش من أجلى ! حتى ترى أولادى !

وسكنت وقلبت نظرها فى السقف ورقص على شفها الذائبة ظل ابتسام ثم قالت وكأنها لا توافق على ما حدث :

— بلدية كانت هنا .

— عال .

— عندي بالنسبة إليها أخبار سارة .

— خير .

— إنها ... إنها حامل !

— زادها الله خيرا وبركة .

فسألت وكأنها فطنت إلى شيء ما كان يجب أن ننساه :

— ماذا عملت عند الست جلييلة ؟

وفي أعماق عينيها بدا كأنها تعرف ، أو بدا لي كأنهما عدستان لمنظار جديد يغوص حتى نهاية أغوار النفس فيعرف ما فيها . ووقعت في ربكة . وتذكرت الماضي ... قصة الخمسين قرشا التي حجزتها من مرتبي ذات يوم من ورائها ، وذهبت بجزء منها إلى امرأة كانت تبيع الهوى . وها هو ذا التاريخ يعود مرة أخرى مكتوبا على ورقة مالية من فئة الخمسين قرشا . كانت الخطة أن أخرج من عند الست جلييلة فأذهب لأشتري قميصا لأن أحد القميصين اللذين أملكهما قد انقطع في بقعة لا تملك أمي سترها . من فوق عظمة الترقوة البارزة أكثر من اللزوم في جسمي والتي تأكل نسيج القمصان كأنها ماء النار . وهأنذا في هذه الليلة قد تصرف في المبلغ ، غير أن التصرف جاء بطريقة متطورة تناسب سني وعقليتي وتفكيري والوقت الذي أعيش فيه !! على أن أنهي هذه الحالة القائمة بيننا بضربة واحدة . أنكر الوصاية ، أو ألغى المعاهدة بكلمة أعلنها . أصرخ في وجهها قائلا لها : لا تسأليني عن شيء . أعطيني كل الشئون بطيئها وأثقها ودعيني أخطئ في تصرفها فليس صوابك يا أمه بأحسن من نخطئي !

لكننى نظرت فوجدت امرأة مريضة . ترقد طويلة هزيلة كأنها عود
من القصب .. وشيء من شعرها الأبيض ظاهر من تحت المنديل فوق أذنها
بالضبط . لكن ... لا بد أن أقول لها ردا . نعود للكذب مرة أخرى كأننا
صغار !؟ ذلك شيء بغيبض لكن متى يكون الكذب مكروها ؟ طبعاً إذا
كان هناك مجال للصدق . وهل تركت أُمى للصدق مجالا في معاملتنا .
لا بد أن أكذب .

— لم أجد لها في البيت فجلست على النيل أشم هواء الله !
— هواء الله ! (وكأنا لم تعجبها الكلمة . كأنما رأيت فيها شبح
التذمر) حسن . قم فتعش . سخن الرز وابحث في التلمية عن خبز
طازج . أوه .. نسيت .. إن وابور الجاز يحتاج إلى جهد في إشعاله .
أقوم !؟ .. أمك لم تعد قادرة على الخدمة يا فؤاد .. إن ..
فقاطعتها :

— لا .. لا .. لا تتحامل على نفسك . سأكل لقمة والسلام : أى
لقمة . النفس بائنة . لم تعد هناك شهية فالجو حار .
ولما دخلت المطبخ وجدت وابور الجاز كأنه خارج من حريق ،
وحاولت إشعاله فكاد يشعلنى . فتمت : « كل شيء يحتاج إلى تجديد
لكأن أُمى تسد الطريق في وجه تدفق الزمن بكفها المعروفة . لا . لا بد أن
يتغير كل شيء حتى ولو لم ترد ذلك » !

وفي المساء التالى ذهبت لأعود الصبى . ألا ترى ذلك واجبا ؟!
حملت معى ثلاث قطع من الشيكولاتة وكتابا مصورا وعدة أقلام
ملونة وذهبت ووضعت كل هذا بين يديه فضحك كأنه ملك الدنيا ،
ومن الغريب أننى أنا الآخر أحسست أننى ملكتها فلعلت أبا الريال !!

وكانت الست جليلة والصبيبة عزيزة واقفتين خلفي تبسيمان في رضا وسكون . ثم ما لبث الصبيان أن انصرفا إلى الداخل يأكلان ويقرآن ويتناقشان . وظللت أنا جالسا مع الست جليلة .

كانت أكثر رونقا من اليوم الماضي كأن شيئا فيها لا أعرف ما هو كان تالفا ثم تجدد . وفي مرآة على مبعدة من رأيت نفسي كذلك أكثر رونقا ، كأن شيئا لا أعرف ما هو كان تالفا ثم تجدد .

كانت جالسة بشق على الكنبه متكئة بكوعها على المسند الخلفي ومتجهة بوجهها إلى . وأخذت تطلع ريقها كأنها تفتش عن كلام وتهز ساقها المدلاة على الأرض . وكنت أعرف أنها تريد أن تشكرني كما يبدو في عينها ، فقالت بتردد لطيف :

— أأتكلم ؟

فأجبت بلطف :

— لا . لا داعي . إذا كان ما سيقال معروفا فلا داعي للعناء .
فزمت شفيتها والابتسام في عينها كأنها تحاول أن تسد نبعا حلوا . ثم قالت :

— هيه ... نحاول إذن أن نتكلم عن شيء غير معروف ؟

— موافق .

فسألت بطريقة من قهر في الجولة الأولى :

— أنت خرجت من الأرض أم نزلت من السماء ؟

— وهل أحزنك ذلك ؟

فزمت شفيتها مرة أخرى وترقرق الابتسام في عينها . وبدت صغيرة حلوة ثم قالت :

— بالعكس . كل شيء بالنسبة إلى يعتبر ربحا !
 فأيقنت أنني على أبواب تجربة وأن الحياة بدأت تلون لوحى بأصباغ
 كثيرة ، فقررت ألا أفرو وتذكرت قول (فهمى) المحب المصلور : « إن
 خير علاقة تربطك بالأشياء هى ... معرفتك بها » سأسبح إذن مع التيار
 يا أماء ... فانتظرينى حتى أعود !!
 قلت بعد أن وضعت رجلا على رجل وخرج من أعماق إنسان
 جديد :

— حاول أن تثقى بى دائما لأننى مستعد أن أمنحك ثقتى .
 . ففغرت فمها وفتحت عينها وشردت فى الفضاء واندفع الصبيان نحونا
 بشكل مفاجئ ليسألانى عن شخصين فى إحدى الصور : « رجل وامرأة
 يجلسان عند مدخل غابة وقت الشتاء ، والأشجار عارية وفى الأفق تبدو
 مباني القرية وعند أقدام هذين الإنسانين حزمة من الحطب جمعا أعوادها
 فى البرد . لوحة جميلة منقولة كتبوا تحتها حكاية عن المساكين ... »
 وخرج الصبيان بعد أن عرفا من هم المساكين !! ... ونظرت إليهما
 الأم وأمرتهما ألا يعودا وأن يعتكفا فى مكان . ثم تكلمنا عن المساكين نحن
 الاثنين ، قصصنا عليها قصة الأب الذى ترك زوجة وبتنا ولدتين رعتهم
 الأم ، حتى صار الأكبر شجرة مثمرة ولم يمض على ذلك وقت طويل حتى
 تركهم وانصرف لشئونه . « وكأننا يا بدر ما رحنا ولا جينا » فلما
 فجعت الأم فى غرس يديها صادرت أمانى بنتها فى الزواج وأجبرتها على أن
 تنزوج من لا يوافقها سنا ولا ثقافة ولا ميلا ولا تفكيرها ولا أى شيء .
 وهذه هى قصة زينب ولست أدري لماذا ذكرتها ولماذا قصصتها عليها .
 وظهر التأثير على وجه الست جليلا فقالت من فورها :

— هل المساكين لا يلدون إلا مساكين ؟ ! فسارعت أقول :
 — ليس ضروريا أبدا .
 فضحكك ضحكة من يريد أن يسوق دليلا على صدق ظنه .
 — إذن ... فاسمع قصتي .

* * *

كان أبوها « منجدا » رجلا كثير العيال قليل الكسب ظل طول حياتنا قابعا في الطبقة الدنيا من العمال . لم يفكر يوما أن يتكرر سما جديدا لوجه لحاف . كل شيء فيه لا يتغير . يشتغل في الشتاء نوعا ويظل طول الصيف شبه عاطل . يسب ويلعن ، ويسعل من الربو ويقسم لزوجته وأولاده كل يوم أن التراب الذى تخلل صدره من القطن القدر الذى ندقه بالقوس — لو جمع فى كومة واحدة لعجز الحمار عن نقلها إلى « المقلب » .. ولذلك فقد اعتبر نفسه (فريسة) . وكان يقول : نعم فريسة افترستنى الصنعة ثم سلمت البقية الباقية منى لهذه الزوجة الملعونة السليطة القليلة الحياء . ولم تكثف هذه الزوجة بما نالته منى بل استدعت شركاء جددا ، عزمتهم على البقية الباقية ، من البقية الباقية ، هؤلاء الشركاء هم أولادها منه البالغ عددهم ثمانية ، ستة من البنات واثنان من الذكور . كلهم ملاعين أبناء ملعونة ، كانوا ينضمون بلا استثناء إلى صف أهمهم فى المعارك اليومية التى تنشب بين الزوجين فى الصباح أو فى المساء .

وكانوا يتكدسون فى حجرتين ينام الكبار فى حجرة وينام الزوجان فى الأخرى مع الصغار الذين لا يدركون — لحدائث سنهم — ما عسى أن يدور فى الغرفة .

ولكره أيها في صنعته أقسم ألا يعلمها لأحد من أبنائه ، فتعلم أحدهما حلاقا وفتح الله عليه لدعاء أمه فتخصص في تصفيف شعر السيدات ، لكنه لم يكن يمد أهله بشيء . وتعلم الثاني (ترزى) لكن الله ابتلاه بحب الغناء والموسيقى فكان يضيع كل ما يكسب على الآلات الموسيقية وتعلم الدروس . وفي كثير من الليالي كانت شقتهم تموج بأشياء متناقضة تقتل من الضحك ، عندما كان هذا الشاب الصغير يجلس في الصالة يغنى على « العود » بصوته الكرية في الوقت الذي يرتفع فيه شجار الأب مع الزوجة أو أحد الأبناء حول اختفاء سيجارة أو قطعة من اللحم أو شيء من النقود .

وكانت الزوجة تطعم هؤلاء الأولاد من دخل زوجها وما تخطفه من أحد أبنائها وتقول لهم حينما تضيق بهم الحال :

— إنكم قوة مخفية ، إننى كمحارس السيد قشطة يدخل ذراعه في فمه ومن المحال أن يشبعه ، وفي يوم ما لا بد يفقد ذراعه . ثم تدعو على نفسها بالموت فرفع الزوج الضيق الصدر كفيه إلى السماء كأنه يتהל إلى الله أن يستجيب .

ويضحك بعض الأولاد ويصخب بعضهم في الوقت الذي يكون فيه الشاب الحلاق مشغولا بوصف محاسن إحدى اللاتي كن في الصالون فيكف الثاني عن الغناء ويستمع وهو يعزف .

وعاشت جليلة في هذا البيت ، بين الضجيج والفقر وثلاثة من الكاسيين ، كل منهم يجرى في اتجاه مخالف ، والأم تهتف بلا فائدة . لذلك كان أى رجل يتقدم لأى فتاة من بناتها لا بد أن يعطى بالقبول . ومن المؤكد أن التساهل في زواج الأوليات كان أعلى نسبة من التساهل في زواج

من بعدهن ، لأنه كلما خف زحامهن خف القلق عليهن ، لكن (جلييلة) كانت الأولى فلم يشب خطبتها شيء من التذلل . فقد رجع (المنجد) إلى بيته ذات مساء واختلى بزوجته وأخبرها بالموضوع .

كان يشتغل في بيت رجل يبلو عليه أنه مستور الحال . عاد الرجل من الخارج وجلس إلى جوار (المنجد) يجاذبه أطراف الحديث ، وذكر النساء لما رآيا الفراش الجديد ، فجعل كل منهما يقص على الآخر في نشوة ومرح ما لقيه ليلة عرسه أو ليلة من الليالي . وعندئذ قال رب البيت : — ولقد ولت الأيام يا صديقي وأصبحت زوجتي كالثوب الذي نخله

الغسيل ... مريضة مريضة ... تشفى يوم الخميس مثلاً لتستعد للمرض يوم الجمعة . وضحك الاثنان . وتكلم المنجد عن الجنية التي تسكن شقتهم وعن أن الله تعالى لم يمتحنها مرة بالمرض وتمنى لو أخذ كل واحد منهما حظ الآخر . واستطرد المنجد قائلاً : إن عنده مبيحة من البنات مبيحة مشكلة الحبات : حبة من اليسر ، وحبة من الخشب ، وحبة من الصدف ، وحبة من سن القيل ، وربما كان بينهما ما لا يعرف نوعها ! قال رب البيت :

— ها . ها . إنك رجل خفيف الظل زوجنى إحدى بناتك هل توافق؟

— حرام . أليس لك امرأة ؟

— قلنا مريضة . هل تخاف ابنتك أن يكون لها ضرة ؟

كانا كأنهما يتسليان عن هومهما بعقد هذه الصفقات . ولم يكن هناك دافع قاهر .. ولو في الظاهر . وتزوجت جلييلة بعد ستة أشهر وكان طبعياً أن تنتقل ، من فقر إلى فقر ، ومن ضيق إلى ضيق ، ومن منزل يصخب بأخواتها إلى آخر يصخب بأولاد ضرتها ...

وانقسم البيت الجديد إلى بيتين بمرور الزمن بعد أن أنجبت الزوجة طفلة سميتها (عزيزة) وأصبحت تلقى من أبناء زوجها مضايقات لا تحصى . ثم ضاقت ذات يد الرجل بعد أن أنجبت ابنه « نبيل » واتسمت أعماله بالقسوة بالنسبة لزوجته الجديدة ، كأنما كانت هي سر التحول . وبدأت أعماله تتسم بالغموض وخيل إليها أن كسبا غير مشروع كان يتسرب ليد زوجها أحيانا .

كان « محصلا » في إحدى الشركات . وفي ليلة من الليالي دخل في وقت متأخر على زوجته وأيقظها . وكان يبدو أنه غير طبيعي كمن يحاول أن يخفى في نفسه أمرا . وبعد وقت أوى الزوجان إلى الفراش . وقال لها قبل أن ينام إنه مسافر غدا في إحدى عربات الشركة ، وسيغيب يومين في هذه الرحلة للحصول من الأقاليم .

ونامت ليلتذ وشيء من الخوف يتسرب إلى قلبها . ونظرت إلى وجه زوجها النائم فوقفت نظراتها عند فكه العريض وشفثيه الغليظتين المطبقتين ، ولم تدر لماذا تذكرت — بعد أن وقسع بصرها على عنقه — قصة الزوج الذي جلوه مشنوقا في الفراش ودخلت زوجته في صميم المأساة كما نشر في الجرائد .

وانقضى يومان على غياب الزوج في الأقاليم ، وفي اليوم الثالث جاءها النبأ الفاجع ، وهو أن عربة الشركة انعلت بزوجها ومعه السائق إلى التربة الموازية للطريق أثناء عودتهما إلى العاصمة ، وقد عثر على جثة الزوج في السيارة . أما جثة السائق فلم يعثر لها على أثر .

ثم ظهر بعد ذلك أن الوفاة لم تكن من الغرق لكنه غرق بعد أن خنق تماما . وبقيت دوائر البوليس مشغولة بظهور السائق فقد رجح لديهم أنه

هو الذى ارتكب الجريمة وأن قطاع الطرق لا يخنقون .
وعبثا حاولوا العثور عليه ، ودبت الشكوك إلى نفوس المسؤولين في
الشركة في أن المحصل والسائق اختلفا كما يختلف الشريكان ، وأن القوى
منهما قتل الآخر واستولى على ألفين من الجنيهات وهرب . ورجع الذين
يطالبون الشركة بالتعويض أن السائق جرفه التيار كما جرف حقيبة
النقود ...

وتعقدت القضية . لكن ذلك كان على حساب الطفلين والزوجة
الست جلييلة ، التى باتت تندب أيام بؤس قضتها في أحضان أبيها بين أم
تصرخ وأب يصيح بينما أخوها يعزف على العود ويغنى ، وبتنان من
أخواتها تضرب إحداها الأخرى ، فقد كان كل هذا بالنسبة لحاضرها
فقرا جميلا بلا دموع ؟ ..

قلت للست جلييلة عندما وصلت إلى الحد من قصتها :
— أوه ... إن قلبي مغمم بالحزن وقد زدت من الحمولة .
— هل تأملت ... أنا لا أحب أن أكون سببا لآلامك .
ونظرت إلى وبدأت سحنتها تتغير بطريقة غير مألوفة لدى ، لم أجريها
من قبل ، كان هناك رغبات ودوافع وشجاعة وجبن ومتناقضات كثيرة
تطفو على وجهها حتى خيل إلى — بعد أن تدانينا فلم يفصل بيننا
إلا المسند الصغير للكتابة — أن جيدها لم يعد قادرا على حمل رأسها الذى
مال فجأة في اتجاه كتفها المدورة . وكانت دبدبة أرجل الصبيين على
السطح تنزل إلينا . أما أنا فقد ظللت جامدا بحكم الخوف وقلة التجربة ثم
تذكرت أنني صممت أن أسبح مع التيار ولا أهرب من التجارب حتى
لا تطرد حياتي على غمطها الممل . ومع ذلك فلم أستطع أن أصنع شيئا .

وهبط صمت خيل إلى أنه طويل . وحاول كل أن يجيد بصره عن الآخر
وأخيرا قالت لى :

— هل ... أنا ... هل .. سببت لك ألما ؟ إنك غير مرتاح فى
جلستك هذه ...

ورفعت المسند من يئنا فوضعتة خلف ظهرى يئنى وبين المسند الخلفى
الكبير . فأصبحت المسافة خالية من الحواجز . ووقع نفسها على وجهى
وهى تميل بهذه الحركة فى اللحظة التى كانت تقول فيها : لماذا
لا ترتاح ؟ ... هل سببت لك ألما ؟؟

وأناحت لى بخدق ومهارة ودربة لا نظير لها أن آخذها بين ذراعى
وأقبلها . ودبدبة الصبيين فوق رأسينا توحى بأن الوقت متسع لنا . لكن
الست جليلة فصلت بيننا بسرعة ، فرأيت دمتين تجريان على خدها وندما
واضحا تبرى به عيناها . وأعادت المسند الصغير حيث كان وهى تهمس
بصوت مبسوح :

— ماذا جرى ؟ ماذا عملنا ؟؟ لا بد أن نقف عند هذا الحد ؟!
وأخذت تبكى . فعدت طفلا أكاد أبكى ... ثم تسللت خارجا من
البيت .



١٦

« تأخرت يا بنى ! لماذا تتأخر هكذا كل ليلة ؟! البيت خال على
والصداع ... آه ... » .

بهذا استقبلتنى أمى فى هذه الليلة كذلك . فعدت أصرخ فيها :
— كنت أشم هواء الله !! .. هواء الله !!
فاستخذلت فى فراشها ساكنة وقبضت على جبينها بين أصبعين ثم
خرجت فخلعت ثيابى وعدت إليها أكثر هلعاً .
— أنت عصبى يا فؤاد .. كأن أحدا أغضبك فى الخارج .
فأجبتها بترفق لأننى أشفقت عليها :
— لا مطلقاً يا ماما .. فكبرى فى صحتك أنت .

— لم تعد هناك صحة .. رشدى وبدرية كانا هنا وانتظرا حتى يرياك
فلما غبت خرجا . إن صحتها سيئة . كانت تغسل لنا ثيابنا فتركت

الغسيل وتقيأت مرتين .. الوحى .. ليساعدها الله .. متى يا رب أرى
 زوجة ابني تترك الغسيل هى الأخرى وتتقيأ ؟
 فضحككت مغیظا فى وقت واحد :
 — ليس هناك بعيد على الله ؟
 فنظرت فى شك ثم قالت :

— إن زواجك ضرورة بالنسبة إلى أنا حتى بعد أن صرت مريضة . أنا
 لا أثق فى الخاطبات . وجيراننا أنت تعرف بناتهم . (وتهدت أُمى)
 حقيقة أنها صارت مشكلة . أيام .. أين ذهبت زكية ، وعنايات ،
 وألفت . وحتى الدميمة السوداء التى كان اسمها فتحية ؟ .. كل هؤلاء
 كانت عيونهن عليك .. أصبحن أمهات .. سبحانه يا رب .. وأين
 سميرة ؟ وبدرية بناتى ؟ آه يا بنى .. ما كان ينبغى أن تسير الأمور
 هكذا .. ستهمنى الناس بأن هذا من تدبيرى . أنا مخلصه ويعلم الله .
 اسمع ... ماذا قالت لك الست جلييلة ؟ اذهب إليها غدا واحصل منها على
 رد نهائى فأنت قدرقيت والحمد لله . وعلى كل حال فقد عرفت أن زميلتى
 التى تذهب إلى طبيب الأسنان عندها بنات . لا بد أن تتزوج قبل أن
 أموت .

وكنت مشغولا عنها ، كنت لا أزال فى غمرة الحوادث التى مرت بى
 فى الجيزة ، وتذكرت تاريخ ميلادى وأنا خارج من حجرة أُمى فى طريقى
 إلى السطوح لألم الغسيل الذى نشرته بلدرية وانصرفت . ونحن نذكر عدد
 سنوات عمرنا فى ساعات الخطر أو ساعات اللذة . ولمع الشيب على
 فودى وأنا أنظر فى مرآة الصالة وكأنا رأيت لأول مرة ، وكان الجو حارا .
 قطع الغسيل على الحبال ساكنة لا تكاد تهتز ، والهدوء شامل يدفع إلى

التفكير . وديك عمجوز وثلاث دجاجات يقرقرن في الحظيرة بين الفينة والفينة . وأخذت أغدو وأروح على السطوح وأنظر إلى العمارة التي قامت خلفنا فبدا يظهرها كأنه جبل متناخم . ثم توقفت واتكأت على السور وفطنت إلى أن أمى ترقد في الحجرة التي أقف فوق سقفها وتحسب الآن مقدرات مستقبل في قلق وخوف . وأن الست جليلة في الجزيرة تسترجع ما جرى بيننا في أسف بالغ . بين هاتين المرأتين يترنخ بنول الساعة التي تمثل سنوات شباني ، فتهدت ثم ذهبت لألم الغسيل .

على أنني في الصباح رأيت الأمور أكثر تحسنا مما كانت عليه في الليل ، خصوصا عندما تذكرت أن قلبا — أى قلب — قد خفق بحبي . ألا يوجد في الدنيا سوى الأمهات ؟! ثم لماذا هذا كله ؟ هل يهينا آباءنا الحياة من أجل أنفسهم ؟ أو من أجلنا نحن ، أو بالنصف بيننا وبينهم ؟ في هذه القضية وجهان مقبولان ، أما الثالث فهو غير مقبول ، فلا داعي لـه يستردها أصحابها مرة أخرى بحيث لا تترك إلا الحسرة .

وفي حركة الترقيات الأخيرة انتقل رئيس المكتب وجاءنا رئيس جديد . وأخذت أنا الدرجة السابعة وأصبحت موظفا موقعا ! وقبل عم سيد يدي في ذلك اليوم وطلب مني الخلاوة وحثنى على الزواج لأتقى الله في النصف الثاني من ديني !

وبعد ترقيتي إلى الدرجة السابعة ومجيء الأستاذ بدران رئيسا للمكتب وظهور الست جليلة واستتباب العلاقة بيني وبين هذين الإنسانين — قررت ذات ليلة وأنا مضطجع في الفراش والنور خافت في الصالة والليل ساكن في الضاحية وكل كائن يتنفس بارتياح حتى صخور الجبل — قررت : أن الحياة اليوم يمكن أن تعاش . نعم . لقد أصبح فيها شيء !!

و كنت كلما هممت أن أذهب إليها أحسست بنفجبل وتقهقرت إلى الوراء ، وأمسى تلح في الذهاب كأن العروسة جالسة على الباب . وذات صباح وأنا جالس إلى جوار الأستاذ بدران في المكتب جعل يحدثنى بصوته الخافت اللين في فترة من فترات الهدوء ، عن ينبوع حب تفجبر في روحه أيام الشباب ثم ما لبث أن انطمس . ويوصيني الأستاذ بدران ألا أنام والحوادث مستيقظة على شاشة السينما ، بمعنى ألا أدخل إلى السينما لأستغرق في النوم حتى لا يضحك منى الناس . يعنى أنه يجب أن أتمتع بالومضة الإلهية الكبرى التي تدب في حياة كل كائن ... بالشباب .

كنا في مثل هذا الحديث حين انفرج الباب عن وجه عم سيد فرأيت على ملاعمه أن أحدا بانتظاري فخرجت أكاد أتعثر ! فإذا بالست جليلة عند الباب الخارجى للإدارة .

وبعد أن سلمت لم نجد أحدا داعيا لأن يناقش الآخر في شيء . إن مجرد اللقاء يعنى تمام التفاهم والعفو ، وربما الاستعداد لتكرير الأخطاء . وكان لا بد أن نتحرك لنغيب عن أعين الموظفين والداخلين والخارجين . فسرنا في غير اتجاه (لاظوغلى) إن كنت تذكره ، لأن عوامل قوية في باطنى كانت تهيب بى أنه يجب أن أغير اتجاهى .

أما حالتها في هذا اليوم فقد كانت حالة المرأة حين تصل إلى (قرار) معين رضيت عنه هى نفسها بصرف النظر عن كلام الناس . وفي هذه الأحوال تلبس المرأة ثوبين في وقت واحد ، ثوب الفرة التي لا تغلب ، وثوب الهرة التي تريد الدفء ، فتبدو غالبية مغلوقة وقاهرة مقهورة . ورأيت الست جليلة كذلك قد لبست قبل خروجهما للقاء ما تعتقد أنها سترضينى به . واجتهدت في ذلك اجتهد الفقير يقدم أطيب ما لديه

للزائر الكبير فيشير في نفسه الخجل والحرص . وخفق قلبي من أجلها
خفقات قلقة حنونا . ورأيت الرحمة والحب والأغراض والشهوات كلها
معباة في جعبة نفسى فاستكبرت مصيبة الإنسان .

وتذكرت وأنا سائر إلى جوارها في صمت قولها ذات مساء : « إن
المساكين لا يلدون إلا مساكين » . ثم نظرت إلى صورتى وصورتها في
إطار الحوادث فرأيت أننا اثنان لم تخل قصة حبنا عما يثير الرثاء ، لأننى محروم
يجرى إلى ذروة الشباب ، وهى محرومة استنفدت في سبيل الرزق كل
وسيلة مشروعة . فإذا كنا حبيبين فإن (إله الحب) لم يرنا بسهم من
الذهب كما تقول الأساطير ، بل ربطنا من أعناقنا بحبل من الليف !
وسحبتنى الست جليلة من أفكارى بقولها بصوت بطيء ونظرة بطيئة :
— هل سببت لك ألما ؟

فسارعت أعلن :

— أنت ؟ بالعكس .. ربما أكون أنا الذى قد آلتك !
وابتسمت فى حنن ونظراتى تذكرها بالموضوع ، فأطرقت وقالت
وهى سائرة :

— هل نسيت (الأمانة) التى طلبتها منى ؟ . طبعاً أصبحت تعرف
أنك قادر على التصرف فى كل ما أملك !
فأعرضت عن الجواب وسألتها قائلاً :
— كيف حال نبيل وحال عزيزة ؟

— آه ... خلقوا لى صداعاً شديداً من كثرة سؤالهم عنك . (ثم
استطردت كمن فطن إلى أنه نسى شيئاً) لكن .. قل لى : ولماذا أحبك

الصغار كذلك ؟ الناس قد يخلقون حول حب الكبار أشياء ومنافع ،
فماذا يقولون في حب الصغار ؟
— وأنا أحبهم كذلك .

فقلت تعاتبني :

— لماذا إذن لا تأتي إليهم . كلنا نحبك . صدقني .
قلت بغير حماسة لكن بصدق ولعلی ذكرت أمي :
— وأنا أحبكم ... لكن . اذكری أن لی أما وحيدة فی البيت تقلق
علی إذا تأخرت عنها ، فضلا علی أنها محتاجة إلی .
فظللتها سحابة حزن خفيف .

— تعال الليلة ... ولن تتأخر عندنا . ينبغي أن أتركك لترجع إلى
مكتبك . أنتظرك ؟!

فهززت رأسي موافقا لأنني لم أجد ريقی . وسمعتها تلقی علی التحية
وتستدير لتعود ، فظللنا واقفا أرقب قامتها الضئيلة وهي تتأود وتلتفت
مرة كلما خطت عشرين خطوة ، حتى كادت تغيب عن عيني .
وقبل أن أدخل المكتب قابلني أحد الموظفين في الصالة ونظر إلى ثغبي
وحياي خمس مرات : « ازيك ، سلامات » وكفه تظلل عينيه كأنه
يواريهما من الشمس ، فأيقنت أنه رآني . وتركته ودخلت حيث
جلست إلى جوار الأستاذ بدران ، كأن الأشياء المشروعة وغير المشروعة
تريد دعامات من الخارج تستعيرها من الناس لينهض بناؤها في نفوسنا .
قلت :

— وبعد يا أستاذ ... هل كان حبك في صدر شبابك يتبوعا محرما ؟
لا تؤاخذني في هذا السؤال !

فأجاب في حنكة الشيوخ :

— نحن لا نختار التجارب . ولكن التجارب هى التى تختارنا . اسمع يا بنى يا فؤاد ... وددت لو كان عندى بنات فأزوجك إحداهن . أنت ولد ناصع طيب مستقيم . التجربة ، سيئة أو حسنة ، هى التى تختارنا لتقع علينا كما يختار الغراب أو البلبل قمة الشجرة . وبعد ذلك قل ، يا بخت ، يا نصيب . فقد تكون شجرة يقع عليها غراب وقد تكون شجرة يقع عليها بلبل . وفى اليوم الذى تختار فيه الأشجار نوع الطيور التى تحط عليها أو تعشش فيها ، نكون نحن قادرين على اختيار نوع معين من التجارب ... ورنث ضحكة فى أحد أركان المكتب وهتف صاحبها يقول :

— تصوروا أننى ظلمت ساعة عاجزا عن أن أجد موطن الخطأ فى الحسبة ، ثم اكتشفت أننى أقول بطريقة ميكانيكية : 8×8 ب ١٦ !! فسحبنا من عالمنا إلى عالم الأرقام . واستأنف كل منا عمله من النقطة التى توقف عندها .

وفى المساء نزلت أُمى إلى العيادة وذهبت أنا إلى بيت الست جلييلة . ولقيني الصغيران بحب حقيقى وتعلق الضبى بنراعى وأكد لى أنه برئ من لسعة العقرب ، وأنه لم يعد يلعب عند المخزن الملعون . ثم جرى نحو الداخل ورجعا وفى يد كل منهما طبق استنبت فيه قمحا وحلبة على قطعة من القطن ، وجعلا يشرحان لى طريقة الاستنبات باعتزاز من وفق إلى اكتشاف عظيم ، ونظرت إلى الأم بعين نصف مغمضة وعلى شفها التى لا تخلو من الفتنة ابتسامة مؤكدة تقول بها : هل صدقت أنهم يحبونك ؟ كان فينا من يستنبت الحب وكان فينا من يستنبت الحب .

فلما خلا بنا المكان رجعنا إلى الماضي فأكملت لى قصة حياتها بقليل من الإسهاب : وجدت نفسها بعد فقد زوجها امرأة لا سند لها ، ومن أسرة كل يد فيها مشغولة بفهم واحد ، وذهبت إلى الشركة تطلب مكافأة أو تعويضا ، فأخبروها أن الشكوك تخوم حول زوجها فرجعت دامعة العين . ومن الطبيعي أن يكون صاحب البيت قد انتظر وانتظر ، والبقال لم يعد يعطيهم شيئا وأنهم أصبحوا مهددين بالجوع .

وقبعت فى بيتها قليلة الحيلة تنتظر مصيرها المحتوم . ثم تخففت من الأثاث وسكنت فى حجرة ، ثم جمع لها فريق من أبناء الحلال من الموظفين والعمال فى الشركة مبلغا لا بأس به عن طريق التبرع ، ثم حكم لها القضاء بالتعويض بعد أن ثبت أن السائق لم يغرق وأن ثراء غير مناسب قد ظهر عليه . واستأجرت هذا المسكن الصغير الرخيص المستقل ، لتكون بعيدة عن الناس الذين لم يرحمها منهم أحد أيام جوعها . ثم بدأت تستغل نقودها بالفائدة .

وسكنت لكنه خيل إلى أنها لا تزال تخفى شيئا . ألم يعترض طريقها ذئب أيام كانت محتاجة ؟ إن الجمال والحاجة أسوأ شيئين تقف بينهما امرأة ، والجميلة المحتاجة يعطيها الناس باسم الرحمة ليأخذوها باسم الفتنة حتى يحولوها إلى حطام .

وممت أن أسألها لكننى لم أجد نفسى صاحب حق . ثم نفضت لها موجز قصتى ، وأعربت لها عن مخاوى من أن تموت أُمى فجأة فأحس أن البيت ، لا ، بل الدنيا أصبحت خالية على ، وأكدت لها أن حزنى عليها سيقتلنى بعد أن تموت .

فألفيت الست جليلة تكلمنى عن الحب ... عن ألوانه التى يزحزح

بعضها بعضا ، ويخل شيء منها مكان الآخر ، فقالت وهى تتمطى :
 — سيؤذيك الحزن يا حبيبى إذا تركتك أمك على هذا الحال .
 (وتساءلت وتهتدت ثم قالت بلين شديد) : تزوج .. ستسبك الزوجة
 خصوصا إذا كانت ذات مأساة فقد أى إنسان . احذر أن ينطفئ عليك
 النور فجأة . آه .. عندما حدث لى ذلك تخبطت فى الظلام !!

فنظرت نحو الباب لأحيد عن نظراتها وقلت :

— كنت أريد أن أتزوج على طريقي الخاصة .

— ماذا تعنى ؟

— أعنى أننى كنت أحب أن أتزوج على حب .

فسألت باهتمام لم تستطع إخفاءه :

— هل أفهم من ذلك أنك لم تحب قبل ... أ ... قبل اليوم ؟!

— لك أن تفهمى ما تشائين .

فهمست بخوف :

— وأنا ؟!

وكانت فى مكانها من الكنبه جالسه بشق متجهه نحوى وكوعها على
 المسند الخلفى والمسند الصغير بينى وبينها ، وأغنية عاطفيه عذبة جديدة
 حارة تأتى من راديو عند أحد الجيران . والصبيان يكسران شيئا فى
 المطبخ ، وقطة عسليه اللون تقف عند العتبة . فسألتها بلورى :

— وأنت ؟!

ثم تهتدت أنا ونظرت إلى المسند ، فقالت بعينها : ارفعه ... ارفعه
 بيدك . النساء لا يرفعن الستر إلا أول مرة ...

« آه .. لا أزال أذكرها .. لقد علمتنى الكثير !! » .



١٧

وحتى هذه اللحظة لم نشترك في التجربة النهائية ...
وأعلنت أمي أن (عواطف) بنت زميلتها أعجبها ، فقد خرجت أمي
من العيادة وذهبت وزرائهم . ثم سكنت وعادت تسألني : وهل قابلت
الست جلييلة ؟ فأخبرتها أنها على استعداد لأن تعطينا ، وأنه من الخير أن
نسحب المبلغ منها قبل تقديم « الشبكة » بأيام فذلك أضمن لأنه دين ،
فوافقت أمي وعادت تصف لي حال هذه الأسرة :
— من الغريب أن ظاهريهم غير باطنيهم تدل ملابسهم على أنهم أغنياء
ويدل بيتهم على أنهم عاديون . في حجرة الصالون أثاث قديم الطراز ..
وحتى قدمه لا يدل على العراقة . وفي أحد الأركان أزهار من الورق
الرخيص أتلقتها أشعة الشمس . حال غريب لكن بتهم جميلة ورب
الأسرة (صائغ) غير معروف . أما العروسة فهي البنت الوحيدة بين
أربعة من الصبيان يتعلمون كلهم . والأمر أمرك يا بني ، وهأنذا قد
خلصت ذمتي !

ولم يكن يخفى على وهى تكلمنى أن قلبها خال من الحماسة . وكنت أنا فى هذه الفترة مشغولا (بكشف) جديد . ولم تكن الحياة فراغا كما كانت من قبل ، فقد علمنى الأستاذ بدران أشياء لم أكن أعلمها وفتح لى النوافذ على الهواء الطلق . زرتة فى بيته الفسقى — أو أقول المتوسط — فوجدته قد أعطى لكل مرفق جزءا من الدخل . ميزانية مرتبة بطريقة تدعو إلى الإعجاب ، لأن البيت جزء من الدولة (كما قال وهو يتسم) وقد اختار الأستاذ نهاية أحد الممرات وأقام فيه حاجزا من الخشب كأنه (هرفان) فتحوّل الزاوية إلى ركن هادئ وضع فيه دولابين للكتب ومصباحا وكرسيًا مريحًا . وورقة من القطن المعقم ! كان يحولها إلى سدادات لأذنه إذا ارتفع الضجيج فى البيت .
وقال لى هذا الصديق : إن الأسف الشديد الذى لحقه والخلل الذى أصاب حياته هو زواجه الباكر .

وقهقه وهز رأسه فى عسر كأنما يثقله شيء :
« كان من الجائز جدا أن أكون فى غير هذا الموضع لو أن أصفاد الأسرة لم توضع فى رجلى . كان من الممكن أن أسافر إلى أوروبا فأتعلم أى شيء أسعد به نفسى وأسعد به الناس . كل الجرف هناك قائمة على أساس . لو أننى عدت بشهادة فى تفسير الأحلام أو إخراج البقع من الملابس لكانت حالى فى المجتمع أرقى من ذلك بكثير » .
من أجل ذلك لم ترأى تمسسا منى كما كانت تتوقع . فسألتنى ما إذا كان شيء قد طرأ على حياتى ؟ وأطرقت تنظر نحو كفها فى حجبها :
— إننى يا بنى أخاف عليك !
قلت بطريقة من يريد أن يخفف خطرا :

— حتى بعد هذه السن؟! .. أوه .. إننى فى الثالثة والثلاثين ياماما .
 — أعرف وذلك ما يؤلمنى . على أننى أراك أكثر مرحا وتفتحا .
 وخيل إلى أن حياتك أصبحت ترضيك . تمام .
 وجاءت أم (عواطف) ترد لنا الزيارة فرأيت امرأة كثيرة الحركة
 شديدة التطلع . ألبسها زوجها قبل أن تحيى إلينا نصف الذهب الذى فى
 دكانه ، فظهرت بشكل قبيح . وكانت أمى تحاول جاهدة فى إكرامها ،
 ولو أن قلقا فى قرارة نفسها كان يرعش كفيها وهى تقدم لها الشراب .
 وتذكرت — وأنا جالس بين المرأتين — أيام فاطمة هائم ولياليها ونزوات
 بنتها زينب ... فخيلى إلى أننى الحجر الذى يلمسه الحجاج ثم ينصرفون .
 وتكلمت الضيفة كلاما كثيرا فلم تدع لأحدنا بجلا ، وتكلمت
 بإمارة وسلطان . وكانت تنظر إلى الغوايش وتعددها بعينها . فى كل ذراع
 (دسنة) كأنها عروس النيل . ونظراتها تذهينى وتكاد ترحلق أمى من
 على البلاط .

وقالت وهى خارجة ونحن نودعها إلى الباب :
 — تعالوا لزيارتنا .. لا بد من الغداء عندنا ذات يوم ... أنا يا أم فؤاد
 أجيد طبخ الكشك بالدجاج !
 ونظرت إلى كفيها الناصعتين تبدى إعجابها بهما . ولم ترأى فى ذلك
 فألا حسنا فقد قالت لى بعد انصرافها وكأنها تمارحنى :
 — انظر ... عندما تفقدنى يا فؤاد فلا تحزن .. ستجد كفين أكثر
 نظافة .. تحيدان طبخ الكشك بالدجاج !
 فهزئت كفى ومططت شفتى .

ورأيت العشاق على النهر وأنا في طريقي إلى الجزيرة أكثر رونقا وجمالا ،
ليس هذا بالضبط ما أريد أن أقوله ، بل كانوا في حياة مألوفة يؤدون عملا
إذا توقف حدث خلل أو تعطل أو شلل في جهاز الحياة . والماء تحت الجسر
كأنه قهوة والناس مجتمعون في كل بقعة على الشاطئ مزدحمون تحت الحر
والأنوار .

و كنت على موعد معها . وكأنا كنت بانتظارى على مقربة من
الباب ، فقد فتحت في اللحظة التى لمست فيها الخشب . وكانت قد
أوحى لى أن أجىء من طريق خلفى دوار ما دمنا سنكثر من اللقاء .
فألف حول (الجراج) والمخزن . وإن كان الطريق مظلم فالحى كله لم
يتمتع بالنور . ولأول مرة في حياتى ذقت لذة التعثر في سبيل القلب .
و كنت ألقى ببصرى على الأبنية الكبيرة الموحشة الجاثمة في الظلام فتحس
روحى بنوف يخالطه خوف آخر لهذا .. خوف من المجهول الذى أسعى
إليه .

وعندما مررت على باب مخزن الخرق والورق ذكرت العقرب التى
لست (نبيل) والليلة الأولى التى جلست فيها حقيقة إلى جوار امرأة .
وأنفاسنا التى اختلطت على وجه الصبى .. وبقيّة القصة !
وعندما فتحت الباب بدت أنها تصغرنى بعشر سنوات . وكان الجو
شديد الحرارة . فلبست ثوبا قصير الأكمام يبدو منه إبطها إذا رفعت
ذراعها .. وكلامها البطيء كان متحيرا كالماء الراكد يعث به الهواء .
ولفتاتها البطيئة كأنما يخالطها النوم . والبيت ساكن .. والهرة العسلىة
ممدودة على الكنبه فى المدخل كأنما نامت وهى تتمطى . ومن الداخل نحو
المطبخ فاحت رائحة « عود » طيب تكاد لا تغلب على نكهة

« التقلية » . على أن الرائحة التي كانت ساطعة فوق كل ذلك هي رائحة الأرواح حين يعذبها القلق فتجد نفسها مدفوعة إلى عمل ما يسميه الناس . « رذيلة » .

ودخلنا فجلسنا حيث تعودنا . وتخير كل منا وهو يختار الكلام . وصمت أنا على أن ألوذ بالصمت حتى تتكلم هي . فقالت بشبه خوف وهي تحمل رأسها على كفها وكوعها مرتكز على المسند الخلفي :

— كيف ترى صحتي ؟

— حسنة .

فاستطردت بنبرة لا تتغير . خافثة رتيبة تستلرجني بها إلى غاية :

— صحيح ؟!

— صحيح !

— هذه هي أول مرة تكذب فيها على !

— لماذا ؟!

— لأنني أشعر أن صحتي سيئة ، إنني أعرف صحتي من لوني .. إنه يميل إلى السمرة عندما ينقص وزني .

— وهل نقص وزنك ؟

— كثيرا .

— وهل لذلك سبب واضح ؟

— قلة النوم . اسمع . أريد أن أتفق معك على شيء .. هو أنني مسئولة أمامك وأنت غير مسئول أمامي . وافقت ؟ عال . كما أريد أن أقول شيئا آخر هو ...

— لماذا سكت ؟

— ذكرت نبيل . وعزيزة . ليتنى ما تركتهما يذهبان . بدأت أقلق عليهما .

— إلى أين ذهبا ؟

— إلى الاحتفاء بوفاء النبيل .

— الناس هناك كثيرون فلا تخافى . لنعد إلى الموضوع .

— نعم . كل شيء أقدمه إليك لا أقصد به إلا إسعادك .

فنظرت نحو الأرض ، وأنا أذكر قول الأستاذ بدران : « إن التجارب هى التى تختارنا كما تختار الطيور ذوائب الشجر » ثم أقبلت عليها بوجهى ورفعت المسند الصغير من بيننا وأخذتها بين أحضانى .. كانت لا تبغى إلا رضائى ، فقد رأيتها تمرغ وجهها فى حجرى وتقبض على كفى فى تحبب يكاد يكون عبادة ، ثم نهضت فجأة كأنها أوجست خوفاً أو سمعت صوتاً فاضطربت بدورى فأمسكتنى من ساعدى بيدها الصغيرة وهمت بى :
— من الأفضل أن ننتقل إلى مكان آخر !

وعبرنا إلى حجرة لم أدخلها من قبل .. وقمة الأماكن منزوعة من الأعمال التى تؤدى فيها . فأحسست أننى على أبواب العالم الذى تعدثوا عنه . عالم المرأة المهيّب الرائع . وقفت على بابه ثمانية عشر عاماً أقرب نوره وأشم عطره فى تردد وخوف وصمت . حتى أمسكت هذه المرأة بذراعى ودفعتنى برفق وشفقة وحب لا يسخر من الجهالات . وظلت تؤكد لى لمدة طويلة أنها تفعل ذلك من أجلى أنا ، بدليل أنه إذا رأيت فى قتلها لذة فإنها ستسلم روحها ليدى !

وعند انصرافى قابلتنى على الباب نبيل وعزيزة . وتعلق الصبى بذراعى وطلب منى أن أدخل ، وشعرت بشيء من الخجل ، فلم أطلق أن أرفع

بصرى إلى الأم . هناك ملذات تقوم على الضحايا كما تزرع الأزهار فوق المقابر . لكننى بعد أن ابتعدت لم أعد أذكر إلا النشوة . والمرأة التى قالت لى ذات مساء وأنا خارج من عندها أجر ذبول الخيبة : « سلم على ماما » وهأنذا أعيش حتى أراهن ألوانا .. كالخمر !! ألسنت جليظة تسرق العقل بسهولة . لكن .. أليس من الجائز أن تحولنى إلى سكير ؟! ماذا يحدث لو أنها دخلت فى دمي فلم أستطع أن أعيش بلونها ؟!

وعندما هبت النسمة الشمالية على وجهى فى ناصية الشارع المضى نسيت هذه الأفكار . وذكرت شيئين اثنين فحسب : أحدهما أنه لا بد أن أسبح مع التيار وأدع التجارب تسقط على . والثانى أُمى التى تجلس الآن بانتظارى . وربما كانت متعبة لا تستطيع القيام . ومحتاجة إلى لأناولها شيئا .

فهمتفت بخنان : أماه .



١٨

وأحسنت أُمى أننى غير ثائر — فتناولت موضوع زواجى بتمهل
وهدوء .. وكلما أحسست هما أو فرحا ذهبت إلى الست جليلة لأنثره
بين يديها ثم أخرج خالى البال كيوم ولدتنى أُمى ! ..
كانت ذكية العينين غير واسعة الثقافة أشبه بالشرع تمتلئ برغباتى
وتتدفع مع أهوائى حتى ترينى . وبعد ذلك ربما سحرت منى ..
أحسست فى عشرين لما أننى أقرأ كتابا مفيدا كتب بخط يد ردىء ، فإذا
حللت لغز الخط انتشيت بعلاوة المعنى فهللت له وشفقت . ولذلك
كنت أقبلها خمسا كلما اكتشفت فيها خصلة تعجبى ..
وكانت تقول لى : يا حبيبى — أحيانا — ويا أنقى — كثيرا —
ويا بنى إذا كانت تدل، إلى نصيحة ...

و كنت ألتقى بها في الخارج فأشترى لها — بنقودها — الملابس
لأنتقى الألوان التي تروق عيني أنا ...

وبدأت أبسط عليها شيئا من ظلالى فاقتربت أن تدخل (عزيزة)
أحد المستشفيات فإن عظمها لين ومن الجائز أن تنصلح رجلها العرجاء :
« حرام . غدا تكون فتاة يا سيدتى فلا تتركها هكذا » فأجابت بأن
ذلك جال في خاطرها لكنها خافت أن تطيب الزجاج فيصيبه الكسر . ثم
أدعنت لرغباني .. كما تدعن دائما .. « آه ... لقد وجدت التي تقول :
(حاضر) وتعطى ولا تأخذ فهربت إليها » .

وخرجت عزيزة من المستشفى أحسن حالا ، ثم مشيت نحو التحسن
ولم يعد صبيان الحمار يقولون لها : يا عرجاء . فعاشوا يذكرون لى هذا
الجميل .

أما نبيل فكان يجنى كأنه ابنى . و كنت أهدي إليه الكتب وأعلمه
بعض الأحيان .

وأما الكميالات الشهيرة فقد ظلت كما هى لكنها غلبتني في شيء
واحد ، وهو أنها جعلت المبلغ بلا أرباح . واجتهدت أنا أن أؤدى إليها
ما أشاء وما يرضيني لكن عن طريق الهدايا .

ولم يعد عم سيد يذهب إلى بيتها . قطعت العلاقة بينه وبينها عمدا بعد
أن تعرفت على لىبقى ستر معقول مسدلا على ما بيننا .

ولم أعد أعيا كثيرا بالنهب والسلب الذى تركبه بلدية في بيتنا نظير
خدمات من الممكن أن يؤديها الغرباء بأقل ثمن . وكان زوجها رشدى
يتبعها في بيتنا كأنه ظل ، ولم أدخل عليه إلا وجدته يأكل ..

وشعرت أُمى أنني أحب . أدركت أن لى عشيقة . لكنها آثرت الصمت . والأستاذ بدران يهدينى إلى مواطن النور ويشرح لى معانى الجمال ويحدثنى عما يقرأ ويصف لى تجارب شبابه . كان يدفعنى بالمهماز كأنتى حصان . حتى بدأت أقرأ وأفهم وأتمثل تجارب الناس (وتحول طبعى الهادئ إلى شاعرية كأنما ذهبت عنه الغفوة ودخلته الحياة دون أن يفقد سكونه الفطرى . وسألت جلييلة لماذا تحببى هـى ؟ ألم تصادف قبل ذلك إنسانا يحمل نفس المزايا ؟ فابتسمت فى خوف وقالت : هذه أول علامات التغير !

ولم تستطع أن تقدم الدليل على صدق نظريتها .
وذهبت مع أُمى فزونا أم عواطف ورأينا العروسة إتماما للمراسيم وعدت أنا فطلبت من أُمى مهلة .
ثم حدث فى نطاق الأسرة شئ غريب . هو أن بادية ، لدت توأمين ذكرا وأنثى .

كان ذلك فى بيتنا نحن وبين يدى أُمى . فخرجت السيدة المسنة العجوز التى تكاد تكون مثقوبة الشدقين والعرق يتصبب من جسمها ، وكان (رشدى) جالسا يقزقز (لبا) بحركة آلية صرف ويهز خديه الكبيرين ، ورفع وجهه إلى السماء وشكر الله وداعبه مبتهلا أن يرزق العروسة بعريس والعريس بعروسة . ونظر إلى نجيب عينه وكأنه يعينى . لبست ثيابى وخرجت وانزوت أُمى تغسل بعض الأواني بذراع كأنها جريد والغيط فى صدرها يكاد يتحول بكاء .

وأيقنت أن متاعب جديدة ستحل عندنا وأن أُمى المسكينة ستتحول إلى مربية .. إنها محتاجة إلى علاج طويل . ستركب أسنانها الصناعية

وها هو ذا الشتاء على الأبواب وحالا سيهجم عليها الروماتزم . وسيقيم .
(رشدى) وأولاده عندنا إقامة متصلة أو متقطعة .

هناك أربعون يوما تكون الوالدات فيها شبه عاجزات عن العمل
ومحتاجات إلى العناية . آه .. يا أمى المسكينة .

وكانت أمى تخاف من عىنى بدرية الحادتين القويتين اللتين تشبهان
الزئبق . وقد قامت من الولادة عصبية سليطة لا تجد من تشتبك معه فى
عراك ، واتكأت بكل قواها على مرافقنا الاقتصادية الضعيفة التى كانت
فى الأيام الأخيرة أشبه بمرضى فى دور النقاهة .

كان الصراخ يملأ بيتنا فى هذه الليلة . بنت بدرية ذات الثلاثة أعوام
تلبس قبقاب جدتها وتجر جره على البلاط وتقع وتهض وتبكى وتضحك
ووجهها ملء بالدمامل . والتوأمان الكريمان مقسومان بالعدل . الولد فى
حجر أمه والبنت فى حجر جدتها . يبكى واحد منهما على الأقل إذا لم
يتسابق الاثنان فى البكاء ويشاركهما (رشدى) ولكن بالقهقهة !

قلت فى نفسى ليلئذ : لعل بدرية تسجب بالنيابة عن الجميع .
وخرجت أشم هواء الله ، وهواء الله الليل العليل فى نواحي الجيزة .
وجدت (نبيل وعزيرة) جالسين يكتبان وعلامات الفكر والقلق
تبدو على وجه الأم . قلت لها :

— هل جئت لأبيع الموم فى سوق الأحزان ؟! ما بالك مكشبة ؟ ..
قد كنت أرجو عونك لأننى متضايق !

— عندى كل ما يرضيك .

— مظهرك حزين !

— لا تهتم .

— يجب أن أعرف !

— قبل أن تنصرف مباشرة ستعرف أنه أمر تافه .

وتمايلت أعناق الصغيرين للنوم بعد مدة وجعلت أقص عليها هومى والغضب ظاهر فى نبراقى . وبعد أن فرغت نظرت إلى بعين حنون ثم سألتنى :

— أتريد أن تعرف رأيى ؟ إننى أم ! وعندما تصبح أبا ستعرف بلورك أن الأضرار التى نلحقها بأبنائنا بلا قصد تدفعنا إليها قوة ترفع الجبل ! وسكتت واختنقت بالبكاء ثم أخرجت من صدرها منديلا مسحته به دموعها وأودعته صدرها من جديد (لقد ذكرت أنها تغش ولديها) !! قلت فى نفسى : إننا نحتفظ بدموعنا كما نحتفظ بالأمنا .. إننا مساكين . وأخشى أن نلد مساكين كما قالت هذه المرأة . والهموم تدفعنا إلى التماس اللذات ، تفعل بأعضائنا ما يفعله السرور تماما ، كأن شجرة تهما تغذيان بخامر واحد !

أخذتها بين أحضانى ونحن جالسان . قالت :

— لا مفر ؟!

— إننى مهموم !

— ستبقى هومك ... أنا لا أطيق أن أراك حزينا .. آه !!

لما نمت ليلتذ أحسست أننى لا أزال فى أحضان الست حليلة .. وأن كفيها الصغيرة تقتل شعر ناصيتى كما كانت تفعل باستمرار . وأك هواء خفيفا ينفذ من تحت مصراع الشباك فيقلق دفا الحجرة . وأننى لست فى سريرى . وأن الكلب الذى ينح فى حديقة بننا الحزينة ليس إلا الكلب الشرس الذى يربط وحده فى عزن الحرق والورق .

و كنت ألتقى بها في الخارج فأشترى لها — بنقودها — الملابس
لأنتقى الألوان التي تروق عيني أنا ...

وبدأت أبسط عليها شيئا من ظلالى فاقترحت أن تدخل (عزيزة)
أحد المستشفيات فإن عظمها لين ومن الجائز أن تنصلح رجلها العرجاء :
« حرام . غدا تكون فتاة يا سيدى فلا تتركها هكذا » فأجابت بأن
ذلك جمال فى خاطرها لكنها خافت أن تطيب الزجاجا فيصيبه الكسر . ثم
أذعنت لرغبائى .. كما تذعن دائما .. « آه ... لقد وجدت التى تقول :
(حاضر) وتعطى ولا تأخذ فهربت إليها » .

وخرجت عزيزة من المستشفى أحسن حالا ، ثم مشيت نحو التحسن
ولم يعد صبيان الحمار يقولون لها : يا عرجاء . فعاشوا يذكرون لى هذا
الجميل .

أما نبيل فكان يعبنى مكانه ابنى . و كنت أهدي إليه الكب وأعلمه
بعض الأحيان .

وأما الكمبيالات الشهيرة فقد ظلت كما هى لكنها غلبتني فى شيء
واحد ، وهو أنها جعلت المبلغ بلا أرباح . واجتهدت أنا أن أؤدى إليها
ما أشاء وما يرضينى لكن عن طريق الهدايا .

ولم يعد عم سيد يذهب إلى بيتها . قطعت العلاقة بينه وبينها عمدا بعد
أن تعرفت على لىبقى ستر معقول مسدلا على ما بيننا .

ولم أعد أعبأ كثيرا بالنهب والسلب الذى تركبه بدرية فى بيتنا نظير
خدمات من الممكن أن يؤديها الغرباء بأقل ثمن . وكان زوجها رشدى
يتبعها فى بيتنا كأنه ظل ، ولم أدخل عليه إلا وجدته يأكل ..

وشعرت أُمى أنني أحب . أدركت أن لي عشيقة . لكنها أثرت
 الصمت . والأستاذ بدران يهديني إلى مواطن النور ويشرح لي معاني
 الجمال ويعدّثني عما يقرأ ويصف لي تجارب شبابه . كان يدفعني بالمهماز
 كأنني حصان . حتى بدأت أقرأ وأفهم وأتمثل تجارب الناس (ونحول
 طبعي الهادئ إلى شاعرية كأنما ذهبت عنه الغفوة ودخلته الحياة دون أن
 يفقد سكونه الفطري . وسألت جلييلة لماذا تعبني هي ؟ ألم تصادف قبل
 ذلك إنسانا يعمل نفس المزايا ؟ فابتسمت في خوف وقالت : هذه أول
 علامات التغير !

ولم تستطع أن تقدم الدليل على صدق نظريتها .
 وذهبت مع أُمى فزرنا أم عواطف ورأينا العروسة إتماما للمراسيم
 وعدت أنا فطلبت من أُمى مهلة .
 ثم حدث في نطاق الأسرة شيء غريب . هو أن بدرية ، لدت توأمين
 ذكرًا وأنثى .

كان ذلك في بيتنا نحن وبين يدي أُمى . فخرجت السيدة المسنة
 العجوز التي تكاد تكون مثقوبة الشدقين والعرق يتصبب من جسمها ،
 وكان (رشدي) جالسًا يقزقز (لبنا) بعركة آلية صرف ويهز خديه
 الكبيرين ، ورفع وجهه إلى السماء وشكر الله وداعبه مبتهلاً أن يرزق
 العروسة بعريس والعريس بعروسة . ونظر إلى نجيب عينه وكأنه يعينني .
 لبست ثيابي وخرجت وانزوت أُمى تغسل بعض الأواني بدراع كأنها
 جريد والغيظ في صدرها يكاد يتحول بكاء .

وأيقنت أن متاعب جديدة ستحل عندنا وأن أُمى المسكينة ستتحول
 إلى مربية .. إنها محتاجة إلى علاج طويل . ستركب أسنانها الصناعية

وها هو ذا الشتاء على الأبواب وحالا سيهجم عليها الروماتزم . وسيقيم .
(رشدى) وأولاده عندنا إقامة متصلة أو متقطعة .

هناك أربعون يوما تكون الوالدات فيها شبه عاجزات عن العمل
ومحتاجات إلى العناية . آه .. يا أمى المسكينة .

وكانت أمى تخاف من عيني بدرية الحادثين القويتين اللتين تشبهان
الزئبق . وقد قامت من الولادة عصبية سليطة لا تجد من تشتبك معه في
عراك ، واتكأت بكل قواها على مرافقنا الاقتصادية الضعيفة التى كانت
في الأيام الأخيرة أشبه بمريض في دور النقاهة .

كان الصراخ يملأ بيتنا في هذه الليلة . بنت بدرية ذات الثلاثة أعوام
تلبس قبقاب جدتها وتجر جره على البلاط وتقع وتنهض وتبكي وتضحك
ووجهها ملء بالدمامل . والتوأمان الكرمان مقسومان بالعدل . الولد في
حجر أمه والبنت في حجر جدتها . يبكي واحد منهما على الأقل إذا لم
يتسابق الاثنان في البكاء ويشار كهما (رشدى) ولكن بالقهقهة !

قلت في نفسى ليلتشد : لعل بدرية تنسجب بالنيابة عن الجميع .
وخرجت أشم هواء الله ، وهواء الله البليل العليل في نواحي الجزيرة .
وجدت (نبيل وعزيرة) جالسين يكتبان وعلامات الفكر والقلق
تبدو على وجه الأم . قلت لها :

— هل جئت لأبيع الحموم في سوق الأحران ؟! ما بالك مكتئبة ؟ ..
قد كنت أرجو عونك لأننى متضايق !

— عندى كل ما يرضيك .

— مظهرك حزين !

— لا تهتم .

— يجب أن أعرف !

— قبل أن تنصرف مباشرة ستعرف أنه أمر تافه .

وتمايلت أعناق الصغيرين للنوم بعد مدة وجعلت أقفى عليها همومى والغضب ظاهر فى نبراقى . وبعد أن فرغت نظرت إلى بعين حنون ثم سألتنى :

— أتريد أن تعرف رأيى ؟ إننى أم ! وعندما تصبح أبا ستعرف بدورك أن الأضرار التى نلحقها بأنثائنا بلا قصد تدفعنا إليها قوة ترفع الجبل ! وسكنت واختفت بالبكاء ثم أخرجت من صدرها منديلا مسحته به دموعها ، وأدعته صدرها من جديد (لقد ذكرت أنها تغش ولديها) !! قلت فى نفسى : إننا نحفظ بدموعنا كما نحفظ بالأمنا .. إننا مساكين . وأخشى أن نلد مساكين كما قالت هذه المرأة . والهموم تدفعنا إلى التماس اللذات ، تفعل بأعضائنا ما يفعله السم ، ثم أيا ، كأن سمجرتما تغلبان نجار واحد !

أخذتها بين أحضانى ونحن جالسان . قالت :

— لا مفر !!

— إننى مهموم !

— ستبقى مهمومك ... أنا لا أطيق أن أراك حزينا .. آه !!

لما نلت ليلتذ أحسست أنى لا أزال فى أحضان الست حليلة .. وأن كنفها الصغيرة تفتل شعر ناصيتى كما كانت تفعل بدموعى . وأن هواء خفيفا ينفذ من تحت مصراع الشباك فقلق دفة الحجرة . وأننى لست فى سربرى . وأن الكلب الذى يبع فى حديقة بيتنا الخربة ليس إلا الكلب الشرس الذى يربط وحده فى مخزن الخرق والورق .

وهزنتى فى الصباح الباكر كف حذرة توقظنى برفق ، فلم أسمع بكاء
أحد التوأمين ولا بكاء كليهما . فإذا بى أجدنى لا أزال فى فراش الست
جليلة . غلبنا النوم ففقدنا وعينا ! وكان نور الفجر يتسلل من الأبواب .
والكلب ينبع بكثير من الطمأنينة فى مخزن الخرق والورق . وصديقتى
منفوشة الشعر مذعورة العينين تعض ظهر سبابتها المثنية وصوت منغم
مملوط ينادى وفيه آثار النوم أول نداء ارتفع فى الحارة :
— « المدمس ال م ي د ا م ي س .. حلو .. » .

فى البيت عندنا كان القلق والصمت مخيما على المرأتين : بدرية
الشاحبة النفساء وأمى المخلعة الأسنان الغائرة العينين والخدين .
أما (رشدى) فقد خرج يسأل فى (استقبال الحوادث) فى كل
مستشفى قبل أن يذهب إلى مدرسته .
وعندما عبرت العتبة الخارجية نبع الكلب فانشغلت برهة خاطفة
بالتفريق بين صوته وصوت الذى كنت أسمع نباحه طول الليلة الماضية .
وانفجرت أمى باكية حين رأتنى ، ونظرت بدرية باحتقار كأنها تقول
لى أنا أعرف أين كنت ! وتركتنا ودخلت إلى توأميها . ثم تهاوت أمى على كنية
ولم تتكلم . وكان من الضرورى أن أقول لها كلمة فجعلت أفكر فى ماذا
أقول وأخيرا نطقـت .
— لا تحزنى يا ماما .

فانفتحت :

— علام أحزن ؟! .. أنا أعلم أنك كنت تشم هواء الله .. لكن ..
أليس من حق البهائم الذين ينتظرونك أن تخبرهم مقدما بأنك ستيت تشم
هواء الله طول الليل ؟!

فحملقت وملأ الغضب صدري ومسحت أذناي ثم صرخت فيها :
 — أنا أعلم أنتى مخطفى . لكن الأم .. كان حار حار عن إرادتى ..
 سهرت عند صديق فغلبنى النوم عنده .. هل من الضرورى أن أظل تحت
 الوصاية طول عمرى .. ما هذا العذاب ؟ .. ينبئنى أن تكلمونا بطريقة
 تناسب عمرنا .. إننى ابن أربعة وثلاثين إن زدت كلمة واحدة فلن أدخل
 هذا البيت الذى عمه الخراب ..

ثم جعلت ألث كائننى جريت كيلو .. وأخذت أمى . وبدل وجهها
 طويلا وأنفها كبيرا كائننى أراها فى مرآة خادعة . وشرعت أضع رجلا
 على رجل وأنزلها وأخبط كفا بكف وأمصص . وأهز رأسى فى كل
 اتجاه .. وهى .. ساكنة مذعورة .

وأخيرا ألقت فى وجهى كلمة . قالت بصوت خافت :
 — كنت عند امرأة .. أغشى النساء تعرف ذلك !
 وخرجت من الحجرة .

ومن الغريب أننى ظللت أزعم كائننا أمامى . كانت الشحنة القديمة
 تريد أن تنزعزع لتخلى مكانها لتجارب الحاضر . لكن باطننا يطرد بعض
 ما فيه ويقبض به كما تفعل العيون . قلت :

— كنت عند امرأة .. هنا صحيح .. ماذا تريدون ؟ ليس لأحد
 عندى شيء . إنكم لا تشبعون . لقد وهبت حنانك لكل الناس
 إلا أنا .. لا تلومينى إذن .. إن كنت أمى فانظري إلى مصالحى ..
 سأترك لك العاصمة .. سأنتقل إلى الصعيد ..
 ثم انخرطت فى البكاء .

وهبط على البيت سكون كالذى يهبط على الليل بعد انقطاع الطلقات

فيه ، فسمعت خفق قلبي . ودخل (رشدى) من الخارج وعليه علامات الإرهاق والقلق ووقف أمامى مفتول الكرافة طويل الذقن عمر العينين منفوخ الخدين وقال بصوت خائف :
— قلقنا عليك !

فنظرت إليه نظرة زاجرة ففر من أمامى . وتقدم الوقت بعد أن خرج رشدى إلى المدرسة وفات ميعاد ذهابى إلى عملى . فدخلت على أمى طويلة رقيقة كأنها تمشى على خشبتين وعلى نخدها آثار دمعها ، ثم جلست جوارى مربوكة لا تعرف كيف تبدأ ...

وتحسست كاهلى بكفها فلم أنظر إليها فخرت على ركبتي تقبلها فشدت شعرى وأنا أجأ بالبكاء لأننى تذكرت المرأة التى قضيت الليل فى حضنها وكيف كانت تمرغ وجهها فى حجرى وأحسست أننى بينها وبين أمى كخيوط من الحرير تجذبني الأم باسم البر وتجذبني الأخرى باسم الحاجة ، وأنا بين كفيهما عرضة للتلف !!
سمعت صوئها حنوناً :

— ولدى ... سأموت بين يديك حالا إن لم تكف عن البكاء . هل عددتنى أسوأ من حيوان ؟! إن الكلبة لم تأكل جروها قط !
قلت لها بصوت متهدج والدمع فى عيني :
— كلامك هذا هو الذى ييكينى . إن كنت تعينى فاسكنى !
ثم ارتميت على صدرها كأنى أفتش عن ثديها بكف طفل ...
— آه .. يا رنى .. ضمينى إليك يا أمى .. واغفرى لى ! لن أخرج من البيت ما لم يتبعنى رضاك !!

و شكوت للأستاذ بدران ما أقاسيه من مساء فصحى على الأم : « إنه يا سنى الحرارة الطبيعية التى يجب أن تتوفر ليتحول الطفل إلى رجل .. لا تحزن » .

وفى الليل لم أخرج من البيت ، وكأنا رأيت الوقت ملكا لأمى وليس من حق إنسان آخر أن يشاركها فيه .

وأوى (رشدى) وأسرتها إلى غرفتهم عندنا . وجلست أسامر أمى كما كنا نفعل . وكنت أرى نبض قلبها فى نحرها . إن جرحى الأعداء لا يجوز أن تجهز عليهم ، فما بالك بمثل هذه المرأة ؟

قالت أمى :

— سأكلمك بصراحة . هل تظن أننى متعمدة شيئا ؟

لقد حدث أخيرا أمر لم أخبرك عنه :

قبل انصرافى من عيادة الطبيب منذ ليال جلست إحدى المريضات تجاذبنى أطراف الحديث ، وتبين لى أنها تعرف أم غواطف . وتسلسل الحديث وامتد فأخذت تمدح أخلاقها وطباعها ثم قالت فجأة : إنهم كانوا أثرياء لولا القضية الملعونة التى أضاعت مالهم (وسألتها طبعا عن هذه القضية . فعرفت أن زوجها كان قد اتهم فى (تزيف نقود) ...

— وبرئ ؟

— بل وسجن !

قلت باشمئزاز :

— دعينا من هذا الحديث .

— بنت الحلال فى انتظار ابن الحلال ... إننى أدعو لك .. أحلامي

تنبئنى بأنك سعيد . بدرجة طماعة ولا أستطيع دفعها . هل أطردها كلما

سحبت زوجها وجاءت ؟ قلب الأم يا فؤاد لا يقوى على القسوة .
وعندما تكون أبا ...

فأكملت العبارة في نفسي بما قالته الست جلييلة ليلة أمس :
« ستعرف بدورك أن الأضرار التي نلحقها بأبنائنا بلا قصد تدفعنا
إليها قوة ترفع الجبل » ثم قلت لأمي :
— لا تظني أنني ساخط على حياتي .
فأجابتنى بخياء :

— أنا أعرف أنك غير ساخط . لكن ... ليست هذه هي الطريقة !
— إن الوقت لم يفت بعد .
— تزوج . حاول أن تعملها ولو دون استشارتي . لقد أصبحت
عاجزة عن أن أتكفل بالأمر . قل لي : إذا كنت تحبها .. فلماذا
لا تتزوجها ؟!

وصرفت عني وجهها لتشجعني على الإجابة فوجدت نفسي في حرج
ماذا أقول ؟؟ أجبتها أخيرا ووجهي إلى ناحية غير ناحيتها :
— إنها لا تصلح !
فسألتني ووجهها لا يزال منصرفا عني :
— لماذا ؟

فأجبتها ووضعني لم يتغير :
— لأسباب من العسير على أن أحصيها .
فحولت وجهها إلي وهتفت والقلق في عينيها الغائرتين :
— تزوج قبل أن أموت . إنني خائفة عليك !!



١٩

بدأت ألسنة الناس تنوشها وأحزنها ذلك (وهذا هو ما أخفته عني)
لكن الست جلييلة أصبحت لا تبالي بما يقولون . وألف الصبيان وجودي
بينهما . وكانا ينظران إلى وجهينا في بعض الأحيان ثم ينسحبان إلى
الخارج .

وتمسح بي عم سيد في الإدارة ذات يوم وأخبرني بطريقة مسمومة أن
الست جلييلة وصل إليها قدر من المال عن طريق (الوصية) وبهذا المال
بدأت أعمالها التي أعرفها .

وأزعجني هذا الأمر وأقلق بالي وأخفيته بدوري عنها مدة غير قصيرة .
وقد كنت في الحقيقة أخاف أن أفقدها . وأصبحت عاجزا أن أتصور
الحياة خالية من ظلها :

— هل من الممكن أن يعيش أحدنا دون الآخر ؟
فأجابتي قائلة وكان ذلك في نهاية وقت عددها من أسعد الأوقات :

— سألت نفسي هذا السؤال ألف مرة ، وأنت حاضر وأنت غائب ،
لكننى فررت من الجواب .

— لماذا إن الإجابة عنه لا تخلو من الطرافة !

وابتسمت وهزرت رأسى واستطردت :

— ماذا يحدث فى الدنيا لو مر عام كامل ولا أدخل الجيزة ولا أدور
حول (الجراج) والمخزن . ولا أراك تقبلين أنامل كفى . وأحصى
همومى وحيلنا كأننى أسير . وأبحث من جديد عن قلب جديد . وأمر على
ييتكم وأنطلع إلى وجوه سكانه بعد أن خرجتم منه . وأثفل أى فراش
نصب فى هذه الغرفة وأمى ناس ناموا فيها . وأنك عشت بعدى أرضا محرمة
على كل إنسان أو أرضا حلالا يعبرها رجل غبرى ...

فدفعتنى فى صدرى بقبضتها لأفيق كأننى مصروع على وشك أن
تأخذه الثوبة وقالت لى :

— ما هذا الذى تقوله ؟!

ولأول مرة رأيت ملامحها متغيرة . وفعلت فجأة — ولأول مرة
أيضا — إلى انتفاخ خفيف تحت عينيها ، وشعرات بيض تلمع فى أماكن
مختلفة خصوصا فى مجرى مفرق الشعر .

— هل تضايقت بما أقول ؟ أليس هذا كله جائزا ؟! إن الزمن يفرق
حتى بين الأزواج !

فهمست :

— حتى بين الأزواج !! .. إنك على حق ! إن أحلامنا أكثر من
أحلامكم . نحن نساء !

وتبينت أنها غارت من امرأة مجهولة لم تقع عليها عينا بعد . كما فعلت
أمى ، تلك التي أحزنها أن تقول امرأة ظننا أنها ستكون (حماق) : « إن
يديها تحيدان طبخ صنف تجيده أمى » .

واستحال بطؤها إلى تبلد مريع . وظهر ضعف الحيلة والاستسلام في
نظرتها وجلستها . فدفعتها — مداعبا — بقبضة يدي في صدرها كما سبق
أن فعلت لي وقلت لها :

— في ماذا تفكرين ؟!

لكنها كانت في لجة أعمق من أن تتركها ذراعى فلم أستطع أن
أستخلصها . فسكت . قالت بعد فترة لتسترد رضاي :

— هل غضبت ؟ أنت لا تعرف ماذا سيصينى إن فقدتك .
ولا تستطيع أن تعرف بماذا سأذكرك إذا ما ابتعدت عني ؟
— بذكرياتي .

فلمعت عيناها بنظرة مخيفة . وقالت وهى تبسم ابتسامة من ظفر .
بغريه :

— لا !! .. غلبتك !

فهزرت كتفى لأننى لم أفهم . فاستطردت :

— أخذت منك تذكارا عزيزا . أخذت صورتك .

— لم يحدث !

— سرقتها منك وأنت غافل .

— وهل يجوز هذا ؟

— حدث بلا قصد .

— وكيف ؟

فاندفعت فجأة :

— من المحتمل .. أن .. يكون في بطني ..

فصرخت :

— ماذا ؟!

فأجابت بهلوء بالغ :

— ماذا ؟ .. أليس هذا نتيجة طبيعية لما نعمل ؟!

فتراقصت أمامي على يياض الحائط المربع حوادث رأيها على الشاشة .
فيها فتاة فرنسية غنية ولدت من عشيقها الفقير غلاما فهرته عند فتاة
ريفية عجوز ، وكان كل من الأبوين يذهب ليزوره خلصة ويعود . وقد
أبكت مأساتهما كل عين .

فبدت على وجهي الربكة . فسألتني :

— ألا تحب أن يكون لك ولد ؟

— ستذهين عقلي ! .. أحب .. لكن ليس بهذه الطريقة !

— هذا لأنه مني ؟!

— بل لأننا لسنا زوجين .

— هيه !! ... ولا يعقل أن نكون زوجين ... إذن فكيف نتصرف

في هذا يا عزيزي ؟!

— لا أدري !

— اشتركنا في الهناء ، فلنشترك في المسئولية .

— تصرف في كما يتصرف النساء !

ضحكت حتى كادت تستلقي على ظهرها وقالت وعيناها تدمعان من

الضحك :

— ولماذا لا تتصرف أنت كما يتصرف الرجال ؟! .. آه أيها الطفل الصغير .. إننى أسخر منك .. كنت أريد أن أسبب لك شئيا من الأحران التى ستركها لى فى المستقبل .
وجمعت أصابعى بين كفها . وأخذت تلقى عليها قبلة ، ثم تنظر إلى نظرة .. على التوالى !

* * *

قلت فى نفسى ذات ليلة وأنا راقد فى فراشى :
لماذا لا يكون ما سمعته أُمى عن أسرة (عواطف) كذبا فى كذب ،
وتوقفت أفكارى فلم تخط خطوة إلى الأمام لأن صديقتى كانت تذيقنى من الحياة ألوانا كثيرة .
ثم سألت نفسى : ولماذا لم أسأل الست جلييلة عن حكاية (الوصية)
التي ألقى إلى بخيرها عم سيد بطريقة تثير الشكوك ؟
ثم سألت نفسى : ولماذا يتزوج الناس ؟! أهم يتزوجون لينسلوا أم
ينسلون لأنهم تزوجوا ؟

وقهقهت وأنا فى فراشى كأنما أعجبنى السؤال . وتنهلت وتمططت
لأجيب عنه بلذة ، وكانت أُمى فى الحجرة الأخرى يفصل بينى وبينها الجدار ،
تعانى سعالا وأرقا أو أصابا أخرى وظللت أديره فى خاطرى والكلب ينبع فى
الحديقة التى شاخت أشجارها فلم يبق لها فائدة إلا الظل والخضرة .
لماذا يتزوجون ؟! ..

إن ذكرى أُمى لم تزد شيئا ولم تنقص شيئا بوجودى . كل ما استفاده
منى — وراء الثرى — أننى أدون اسمه بعد اسمى فى كشف المرتبات
واستمارات الحسابات . فهل هذا خلود ؟!

من الأفضل إذن أن نقول : إن الناس ينسلون لأنهم تزوجوا .. إذن
فقد وضعى مع الست جلييلة وضع مقبول مادمت لم أخلد أئى ومادام الناس
ينسلون لأنهم تزوجوا ..
ونبح الكلب لأن السكير الذى يمر كل ليلة أمام السور فى نفس الميعاد
مر فى هذه اللحظة ... فجعلت أسأل نفسى ... لماذا يسكر الناس ؟ ..
ثم قلت : كما كان أئى يسكر ..

وظللت أردد الجواب حتى رحت فى النوم .
ثم سألت الست جلييلة عن حكاية الوصية وارتاعت كأننى كشفت
عنها سترأ لم أكتشفه من قبل . ثم قصت على القصة . ثم أعرضت عنها
وهجرتها ثلاثة أسابيع ، استطعت خلالها أن أتمثلها وأصبرها بوضوح . ثم
تصالحتنا فقالت لى ليلتذ . إن تخيلاتك تتعبك أمها الحصى ... هل عدت ؟!



لما ضاقت الحال على الست جلييلة بعد وفاة زوجها كان من الممكن
جدا أن تدخل سوق البغايا ، لكنها صبرت على الجوع حتى قبض الله لها
فرصة عابرة ، ولو أن بعض الرشاش أصابها بسببها . كان على مقربة من
الحى الذى كانت تسكنه آنذاك ، طيب عجوز فى شقة كبيرة من بيوت
الأوقاف ، اتخذها عيادة وسكنا . وكان من الذين احترفوا الطب
بالممارسة ، وقيل إنه عمل طبيبا فى الجيش ثم أحيل إلى المعاش منذ خمس
سنوات ، يخرج وقت الصباح أو العصر نظيفا أنيقا نحيف العود لامع
الحذاء عليه قميص أبيض منشى ورباط عنق أسود لا يتغير وعلى عينيه
منظار رقيق فى شغافية فقاعة العصابون . وينقل خطاه بعذر كأنه يخشى أن
ينجرح الأرض .

ولم يكن يزوره في العيادة إلا أفراد قلائل . يفتح لهم الباب بنفسه
ويحلق فيهم بعينه الضعيفة أو يفتح لهم الخادم — إن وجد — لأن
الطبيب عاش عازبا طول العمر . لم يكن وجهه مريبا . كنت تتخيله
سليلا عز . يعتزل الناس في ترفع لا يخلو من الأدب والعطف والشفقة .
سطا عليه اللصوص ذات ليلة فوجدوا كل شيء في الشقة عتيقا إلا الملابس
والساعة الذهبية . ومنذ تلك الليلة ربط كلبا ضخما وراء بابه ، وعاش
مدة طويلة بلا خادم . وكان يفتح الباب بنفسه للمرضى النادرين الذين
يذهبون إليه ، ويحلق فيهم وهو يدين وجهه منهم . ولما شعرت الست
جليلة بإعياء شديد وشربت من الزرنيخ والحديد ثلاث زجاجات وظلت
تدوخ كما هي — ذهبت إلى هذا الطبيب تطرق بابه :

— أكاد أسقط من الإعياء أثناء سيرى يا سيدى ، دواء المستشفيات لم
يجدى نفعا وأنا امرأة فقيرة .

— سأرى بنفسى .

وأدرك أن اضطراط قواها ناشئ من سوء التغذية ، وعاد يحلق فيها
بعبه اللتين لم تخلوا من الصفاء على الرغم من الشيخوخة . ثم سأها :

— ماذا يشتغل زوجك ؟

فأجابت متلعثمة :

— لا شيء ... مات !

— وكيف تعيشين ؟

— لا أدرى .. لكننى أعيش ؟

— هل لك أولاد ؟

— صغار . ولد وبنت .

— يعيشون بنفس طريقتك ؟

— طبعاً .

— وأين تسكنين ؟

فأشارت بذراعها ممدودة إلى الحى الذى لا يقع بعيداً جداً عن المكان . الحى الذى يشبه الخلية ... لكنها مليئة بالذباب والأوحال .

قال الطبيب بعد فترة تفكير :

— تشتغلين عندى ممرضة ؟

— أشتغل .

ولبست ثياباً نظيفة وعادت جميلة وأصبحت رشيقة فى (المريضة) البيضاء . وكان ولداها يذهبان فيلبان فى الشقة الواسعة مادام المكان غير مزدحم بالناس ... وتطوعت بتنظيف المكان فى أوقات متقاربة ، ثم بدأت تعطيخ للطبيب ، ثم أخذت ترعى بقية شئون البيت . ثم استحالَت إلى أنيسة ، ثم أغدق عليها من ماله وقال لها ذات مساء :

— ألا تعرفين لماذا أحبك ؟ لأن طبعك الوديع الساكن يا بيتنى يذكرنى بالفتاة الأولى التى أحبتنى فى شبابها ...

وتنهَّد ثم قام إلى خزانة خاصة فأخرج منها صورة لشابة عليها ملابس من طراز صار قديماً ، واستطرد الطبيب :

— كثيراً ما أحرقت قلوبنا بنات ، وقد تسببت لها فى الموت . دفعتها إلى أن تحرق نفسها ... أما بقية القصة ... فسيظل هنا (وأشار إلى صدره) ...

وعاشت معه الست جلييلة عامين اثنين كانت فى الحقيقة كل شيء له ، وقد خصها بأشياء كثيرة ... وربما خصته هى بأشياء ... ولما مرض فى

أيامه الأخيرة كانت تدفء له زجاجات الماء وتضعها تحت قدميه في الفراش . وتلفه بالغطاء ثم تنصرف . وقال لها إنه أعد لها مفاجأة ستعرفها بعد موته ، وكانت وصية بميتين من الجننيات لأنه لم يكن غنيا .
لكن الناس قد يفتشون عن دوافع غير فاضلة للأعمال الفاضلة .
وكنت أنا شخصا في صف الذين التمسوا هذه الوصية أسبابا غير ناصعة .
وعلى كل حال عادت الست جليلة إلى الطبيب صباح يوم فرأته ميتا وحده . وإحدى زجاجات الماء محطمة على الأرض عند أقدام السرير .
وعيناه مفتوحتان عن مقلتين كأنهما من الخرز الأبيض تحمقان في القفر والسكون . والبيت الذي يسكنه لا يصبح فيه كائن حي إلا الكلب المشدود إلى شنكل الشقة !

قلت لها : « إنني أصبحت أغار عليك حتى من الذين مروا في حياتك وانفصل واقعهم عن واقعك » . فسألتني كأنما لذه لها أن تعبت بي :
— من أجل أي شيء أحببتني ؟

— من أجلك جملة واحدة : اسمك وجسمك وروحك وكل شيء فيك . والذكريات التي تحوط صلتى بك . وحتى تعثرى في الظلام ونظري كل مرة إلى وحشة الحى من الخلف ... (الجراج) وعزرن الخرق والورق .. و .. وماذا أيضا ! ... أظنك فهمت الآن !

فقلت بعد تفكير وبلهجة تنذر بما يقلق :

— اسمع .

نعم .

— تعال نجرب أن نعود بعلاقتنا إلى ما كانت عليه ليلة ذهبنا معا

« بنيل » إلى المستشفى .

وفترت أجفانها وارتنفت أوصالها كأنما دب في جسمها خمر ... ثم
قالت :

— ليتني أعرف كيف أصف هذه الفترة ؟ .. إنها شيء لا يوصف ..
— هل أفهم من هذا أنني سبيت لك قلقلًا وأورثتك متاعب ؟
فسارعت إلى نفي أفكارى بحماسة حارة ثم قالت :
— أريد فقط أن أستبقيك لنفسى مدة أطول ... هذا ما أريد ... هل
فهمت يا صديقى ؟!

فhezزت رأسى مؤمنا ثم قلت :
— حسنا ، نبدأ من اليوم .

وظللنا كذلك خمسة عشر يوما أجبرتني فيها على أن أزورها بكثرة
وبمعدل غير عادي حتى لا أكون هاربا من الواقع .
وفي اليوم الرابع عشر غرقنا جنب الشاطئ نحن الاثنين . ولما أفقنا
ذكرنا ونحن نضحك في يأس أنه كان من المستطاع أن نعبر التجربة لو
تسلحنا بشيء من العزيمة .

وانخرطت هي في بكاء عجيب . كان مريعا إلى حد أنه غير ملائمتها
فرأيتها أمامى كأنها امرأة سواها . ودخل نبيل علينا فجأة كأنما انبثق من
الأرض . هبط من فوق السطوح . وكانت أخته في الخارج . وسألها :
— لماذا تبكين يا ماما ؟

ونظرت إلى مستفسرا بعينين لم تخلصا من اندموج كأن نسب عندي أنا ،
فأدركت في هذه اللحظة فضاة غش الأبرياء .
وبعد أن هدأ ما بها قالت لي :

— هناك أشياء تقلقنى فى هذه الأيام .. أرأيت أولا كيف انهزمتنا ؟
 هذا يدل على شىء خطير بالنسبة إلى وإليك ... أنا لا أنام جزءا من
 الليل ... عدت ذات ليلة عدد النباحات التى نبحها الكلب فى المخزن
 لأننى أرقحت حتى الفجر ... وأصبحت أعرف الوقت برائحة الهواء من
 طول السهر ... وهناك شىء آخر ... إن قلبى يحدثنى أن الله سينتقم
 منى ... على أنك ستركنى قريبا إما بسببى أو بسبب الزواج ...

— بسبب الزواج هذا مفهوم ، فما هو السبب الآخر ؟
 فوضعت سبابتها تحت إحدى عينيها مشيرة إلى لمسات الشيخوخة فى
 هذه البقعة وقالت :

— ألا ترى ؟!

وظللنا صمت ، وانشغلت بالنظر إلى معصمى الذى بدت عليه
 النحافة فى الأيام الأخيرة . وحضرنى فى هذه اللحظة زميل فى الدراسة
 الذى قابلتنى عصر يوم على طريق المرصد ... هل تذكره ؟ يوم كنا فى
 مدخل الربيع وهو منحدر مع ابنه بعد زيارته لأحد المرضى فى المستشفى
 العقلى . وذكرت يياض شعره وآثار الزمن وخطوات السنين على ملاحه
 وهو من أندادى . وكان ذلك منذ خمس سنوات على الأقل يوم كانت
 الأعشاب على جنب الطريق المسفلت تشارك فى مقدم الربيع بأزهار
 صغيرة على قدر طاقتها ، ويوم قال لى صديقى هذا مداعبا :

— افرج عنه ... افرج عن ولدك ... إن الإنسانية لا تزال محتاجة إلى
 مواهب ... من يدرى ؟!

وقطعت الست جليلة حيل أفكارى :

— ولم لا تتزوج ، هل تنتظر حادثا معينا ؟

فسألتها في قلق :

— ماذا تعنين ؟!

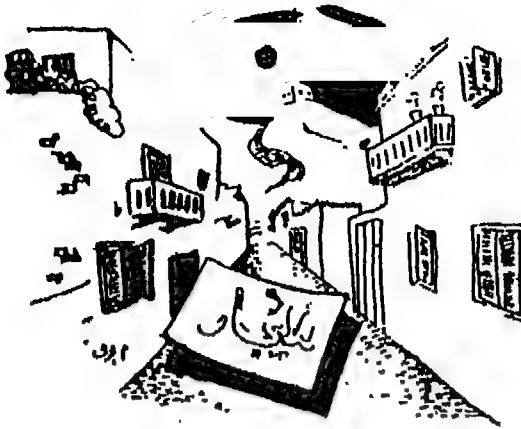
فأجابت متهربة :

— لا أعنى شيئا . حرام أن تعرض عن نفسك ... أنا أحبك
يا فؤاد .. لا تبقى عازبا طول عمرك فأنا لا أستطيع أن أنسى يوم موت
الطيب ولا نباح الكلب ولا زجاجة الماء المكسورة أمام سريره في
الليل ..

فلم أجب . ومألت تجهيزات الفكر والقلق والتدبير صفحة جينى .
وظللت مطرقا أنظر إلى معصمى والعروق اللازوردية الزرقاء التى
أصبحت ظاهرة البروز فى ظهر كفى ، وأخيرا نهضت من مجلسى كأنما
رفعنى (زمبلك) وقلت للست جلييلة دون أن ألقى عليها نظرة :

— سلام عليكم !!

وصفقت الباب بيدى فرن فى الليل والتمست سبيل من الطريق
الخلفى .



٢٠

وصارت أُمى كثيرة الأحلام تتحدث كثيرا عن الموت والأموات .
وركبته مخاوف لم تتغلب عليها صلاتها . وفي كثير من الليالي كانت
تستدعيني لأنام على مقربة منها . والدنيا في نظرنا لا تساوى جناح
بعوضة .

وعادت بدرية إلى البيت لتخدم أمها ، وسحبت وراءها الفوضى
التقليدية كأنها ذيل من الغبار . وكانت منفوخة البطن تمشي بحملها
وراءها ثلاثة ، والضجيج يملأ أركان المنزل . والحديقة أثر والسطوح مخلع
البلاط . والمباني عن يمين يبتنا وشماله قدار تفتت وهو على مستواه القديم ،
فصار السطح كأنه بحر في قاعه الغسيل ، وحظيرة الدجاج والأطفال ،
وكر اكيب البيت .

وأُمى في حال لا يجوز لأحد فيها أن يضايقها . بحسبها أفكارها ! إنها
تكفيها ! ...

تستعبد تاريخ حياتها كل يوم بم تقلب نظرها فيما حولها وتبكي .
و كانت بدرية تصرخ في وجهها أحيانا وترجرها كأنها طفلة ، لأن قوتنا
إذا تركتنا تحرك الناس وتركونا .

أما أنا فكنت في ركود أشبه بالذي يصيب الشاردين . أحاول عزل
نفسى وأدس رأسى في أى شىء أقرأه أو أجلس وحيدا في مكان موحش .
و كم أطللت على مغارات الجبل ، ووقفت أراقب أحد السمايين ، هو يتحون
عند صخره أو يتسرب إلى جحر . وهذا الركود هو المارقة التى نأوى إليها
بضعفنا كما تدخل السلحفاة في درقتها الطبيعية .

وقالت أمى ذات مساء : « إننى سأموت يا فؤاد ... وأنا .. إذا
كانت الظروف لم تساعدنى على إسعادك .. فإن عزائى أنك رجل ... وأن
نيانى جبالك يا بنى كانت خيرا من أعمالى معك ... فإذا كنت قد
أخفقت في تحقيق ما كنت ترجوه فلا تعقد على ! » .
ومن الغريب أنها لم تبك ، كأن الدموع قد فأت أو أمتها .

وقامت في الصباح تعلن في فرح أنها شعرت بتحسن غير متظر .
ونفضت من فراشها وجلت في البيت وصعدت إلى السطح وأطعمت
الدجاج وجمعت بيضه ثم جلست في الشمس . ولعب أمامها أبناء
بلدية ، وغنت لبعضهم بنفس مقطوع ، وذبحت دجاجة ضبطوها عدة
مرات وهى تثقب البيض بمنقارها وتشر به . وفاجأتنى وقت الظهر بأن
قدمت لى طبقا من الكشك ووركا من الدجاجة . ثم تركتنا ودخلت إلى
غرفتها ...

كان الوقت شتاء واليوم صحو جميل الشمس ، فخرجت بعد الغداء
إلى الحلاء أشعر أن براعم جديدة تنفتح على غصنى ، وكنت منشرجا

فذكرت صديفتى . إننى لم أرها منذ شهر كامل ولم أحاول أن أذهب إليها ، بعد الموقف الذى وقفته منى ليلة صفقت بابها وخرجت . ولم تذهب إلى فى عملى ، قلت بينى وبين نفسى : إنها عنيدة فلا تكن عنيدا . وهكذا هن . لقد بلغت (درجة التشبع) .. الحب حاجة لا أكثر ولا أقل . بدليل أننا لم نستطع أن نحب بأرواحنا هكذا فى صمت بعد أن أحببنا بكل ما فىنا . أنا وهى .

إنه يبدو على الأفق — وقريبا جدا كما ترى عيني — أن ناسا سيغيون عن نطاق . ستغير الأحوال .. ستطفى الأنوار كما قالت الست جلييلة .. طيب .. ولماذا لا يكون العكس ؟!

لن أذهب إليها . لكن .. لماذا لا تكون عاجزة عن أن تحضر إلى ؟! لن تبغنى بهذه السهولة . لقد ظلت تعطى وأظنها مستعدة لأن تعطى أيضا ، آه .. لن أذهب إليها ...

وفى المساء عادت أُمى إلى ما كانت عليه من تعب ... فنذرت لله إن خفف ما بها لتحجن إلى بيت الله !

وكررت لى أنه لا يجب أن أحزن عليها إذا ماتت : « لا تستسلم للأحزان يا بنى فإنها تقتل ... تزوج بسرعة ... فإنها ولا شك ستسبك كل ما فات !! » .

— أنت بخير يا أُمى فلا تقول ذلك !

ولما تذكرت الست جلييلة وهجرها الذى قد يكون أبديا ورأيت قرب نهاية أُمى أحسست كأننى فى عربة يجرها فرسان استطاعت كل واحدة منهما أن تتحرر من رباطها وتجربى فى اتجاه ، وبقيت أنا حيث كنت جالسا فى العربة المتوقفة وحيدا أنظر حائرا مذهولا إلى كل فرس مرة !!

لابد أن أنفض أحزاني بين يدي صديقتي . سأذهب لأراها لأن
عندها ما شغلها عني ، فلأنظر من أي نوع هو . وعرجت على حجرة
أمي وأنا في ملابس الخروج ، قالت :
— إلى أين يا فؤاد ؟

وكانها لم تنتظر لأكذب عليها فأعفتني من الكذب الذي عودتني عليه
معظم حياتي ، فاستطردت قبل أن أجيب :
— أرجوك ألا تغيب .

فسرت أنلكأ في نواحي الضاحية وأستمع إلى ريح الجبل التي تنصب
على رعوس الأشجار في الحدائق فتشربها وتميل ثم تعود إلى وضعها الأول .
وكان الليل شديد البرودة لكنني كنت أشعر أني في حاجة إلى أن أكل الثلج
أو أشربه مذاها . والأسوار الطويلة حول البيوت الكبيرة تبدو كأسوار
الحيوانات ... والأضواء من وراء المصاريع وكأنها ساهرة على الموتى في
الداخل ...

وهاتف بي هاتف في داخلي : ليس هذا وقت النزهة ولا لقاء
العشيقات ...

ربما كانت أمي محتاجة إلى فذهبت لأسهر جنبها .

. . أما بدرية فكان يبدو على وجهها ملامح من ينتظر اللحظة التي
تنفض فيها الشركة ، وزوجها جالسا يجتر ، لست أدري أكان يأكل أو
كان يقرقر (لبأ) . وخداه الكبيران يتحركان ، والأطفال نائمون ،
والشتاء في عفوانه . وعوامل الطبيعة على وشك أن تبذل مجهودا غير
عادي .

والنهايات حتى لو كانت مخيفة يتعجل الناس سعيهم إليها ، كنت على الرغم من توقعي للأخطار وخوفى منها أرى فى قرارة نفسى تشوقا إليها كالضربة ننتظرها من الخلف ، أو الرصاصة نتوقعها وعيوننا معصوبة . ولما دخلت على أمى أشارت إلى أن أصعد فأجلس جنبها على السرير ، وقالت بصوت ضعيف : « لم يعد لى ما أخاف عليه إلا أنت يا بنى ... تذكر وصيتى ! حافظ على نفسك ! » .

ولم تحاول أن تنظر إلى بعد ذلك ، وسكنت كأنها تتأهب للنوم . أما أنا فلم أتكلم . لم يكن فى قلبى لها إلا كل حب وإشفاق ، بل شعرت أنها مظلومة ، ماذا أخذت من حياتها إلا الحب الذى أورثها المخاوف ؟ كالبحيل يدفن المال فى جوف الأرض حتى تأكله الرطوبة ، ولو تركه يسعى فى السوق لعاد إليه سليما ومعه الربح !!

كانت كعود من القصب متدثرة فى الأغطية . ماذا تقول فى نفسها الآن ؟ هل ترانى داخلا عليها وفى يمينى امرأة فى ملابس بيضاء وترى نفسها مدفوعة نحوها لتقبلها فى خدها ؟ أم ترى سميرة واقفة على بعد وهى تشير إليها بأن تحيى وتتلقت كأنها تخاف أن يراها أحد ؟ وهذا ما رأيته أمى فى أحلامها وفسرته بالموت ، أنا لا أستطيع إلا أن أحزن عليها :

— ماما .. ماما .. لماذا لا تردىنى ؟

وانقصف فى هذه اللحظة غصن فى الشجرة العجوز القائمة فى ركن الحديقة فعبرت قرعته عن معنى (الانفصال) فنظرت إلى أمى وهى تبسم لكنها لم تتكلم ، وسحبت كفها وقبلتها ثم ملت على جبينها وتركت عليه قبلة أخرى ... ولم أستطع أن أبهى فى الحجرة ...

وربضت جنبها بدرية كمن يرقب أمرا مقررا ولا يخيف ، وذهبت أنا
إلى حجرى لأحسب حسبة حياتنا .

ومع الفجر صرخت بدرية ونبح الكلب فجأرت بالبكاء :
— لماذا تركتني يا أماء !!

لكن الأستاذ بدران قال لى وقت العزاء كأنه يذكرنى بأمر لا ينبغي أن
ينسى : « هل من الطبيعى أن تتركها أنت أو من الطبيعى أن تترك
هى ؟ .. تجلد أيها الطفل ! » .

* * *

ولم يخل على البيت فقد ظل عامرا بأنفاس بدرية .
كانت فى ثيابها السوداء ونظراتها القلقة وجسمها النحيل وطبعها
الحاد شديدة الإخافة .

وبعد ثمان وأربعين ساعة ذهبت إلى الإدارة فأخبرنى عم سيد : « إنها
جاءت وسألت عنى » قلت له فى شرود :
— من هى ؟

فأجاب ببرود ونحيب :

— هى ! ... هى نفسها !

فتركته ودخلت .

ولما انقضى النهار سرت إليها سمر العطاشى . فى القلب حزن يشبه
الجرح يريد الضمادة ، أشعر أنى أريد حنانا من نوع لا تستطيع امرأة أن
تمسحه إلا الست جليلة . حنان الأم مخلوطا بالراحة الجسمية والتهدئ
والدموع ، وقد ينتهى بالنوم الطويل .

وطالعتنى معالم حبيهم فى الليل المظلم كأنها أشباح على الشاطئ أراها وأنا فى اليم . وكان بابها نصف مفتوح فرأيتها فى الصالة واقفة وفى يدها جريدة نخلة تهدم بأطراف سعفها « بيت عنكبوت » فى أحد الأركان على مقربة من السقف .

ودفعت الباب ودخلت ثم أقفلته بظهرى .

وألقت ما فى يدها والتفتت مدهوشة . ثم أقبلت نحوى فارتميت عليها أبكى بصوت مرتفع . حذرتنى قائلة وسبابها على فمها : « لإنهما فى الداخل .. ماذا يقولان إن سمعا بكاءك ١٩ » .

وتدافعنا نحو الحجرة فنظرت إلى رباط عنقى الأسود وقالت وكأنها تذكرنى بإنلدار قديم :

— انتهى الأمر ١٩ ... ألم يكن هذا متوقعا ١٩ .. لا تشق نفسك ! (وتحسست شعر ناصيتى) أيها الطفل العزيز ! ..

وساد سكون فلم يتكلم أحدهنا ، وتركتنى وذهبت إلى الداخل . كان التعب باديا عليها والسن كذلك . بدت بنت خمس وأربعين سنة أو تزيد . وخطوط الشيخوخة فى وجهها تقرأها كل عين . وجلست مشوقا لأن أرى ماذا ستعمل ، متلهفا إلى نسمة حنان تهب من أى مكان . فلما رجعت إلى كان فى مقلتيها دموع ، وجلست وشئ من الخوف يبدو فى حركتها أشبه بذى الثوب النظيف ينظر إلى مكان جلوسه فى حذر ، ثم أمسكت كفى وهى بعيدة عنى وقالت بلهجة غريبة :

— لو لم يحدث ما حدث بيننا لاستطعت أن أكون أملك !

فأطرقت أتدبر قولها . وخيل إلى بعد وهلة وكفها تدعك كفى أنها

تقول ذلك لتنفري من شيء معين . فنظرت بوجه في مثل يياض الشمع
وعينين تلمعان كالمرآة قائلا باحتجاج :

— ما هذا اللقاء الحار ؟!

فأجابت بيقين :

— لا تخزن ... لا تتعجل فسأحكى لك كل شيء .

— قولى .

قالت برقة .

— حاضر .. سأقول .. إذا جاء الفراق في الوقت المناسب لم يسبب
أحزاننا كبيرة . وكنت أريد أن أقول لك هذا الكلام ليلة خرجت غاضبا
من عندي ، من الخمر أن نضع خاتمة لما بيننا في وقت مبكر . المصلحة
مشتركة وكل منا سيستفيد .

فقيمت من مكاني غاضبا وجريت نحو باب الغرفة بنفس الطريقة
المفاجئة الرعناء التي خرجت بها في المرة السابقة . فجبرت خلفي
واحتضنتني من الراء ورجلتي بصوت مخنوق مغلوب متهافت يدل على
الحب وتعارض المصالح :

— لا تتصرف دائما كما يتصرف الأطفال ... عد معي يا حبيبى .

فعدت وجلست ساكنا .. وبعد وهلة ربت على خدي وسألتني
وهي تلبس وجهها من وجهي :

— إنني رسمت خطة . خطة نهائية وسأستعين في تنفيذها بأثنين
أحدهما أنت ... وسكت ، فكان طبعيا أن أسأل :

— والثاني ؟!

— الثاني ... الله !

فابتسمت للمرة الأولى بعد موت أُمى ونظرت إليها نظرة مستفهمة
مذكرة بالماضى فقالت :

— أنا أفهم كل ما تريد أن تقول لكن .. هل من الضروري أن نظل
هكذا .. لأننى أخاف على أبنائى .. لقد أصبحا يدركان الأمر إدراكا
غامضا ربما يفسره لهما شخص أو حادث .. وما دمت لا أستطيع أن
أكون أما فمن الأولى ألا أعود .. آ .. الدنيا تغيرت يا صديقى لقد
كبرت .

— من ؟

— أنا ... ألا ترى ذلك ؟! سأحاول أن أقيم سدا بين الحاضر
والمستقبل . ساعدنى وسيساعدنى الله .. لقد عزمت على أن أحج ..
وأطرق فى خجل ..
فسألت مستغريا :

— تحججين ؟!

— نعم . أما أنت فسأراك (عريسا) .. ستسنى كل أحزانك ..
احذر أن تستسلم يا أخى .. أليس من الجائز أن ألتقى بكما ذات يوم وأنتما
فى الطريق .. أه .. لماذا ستحدثها عنى ؟! .. يومئذ تقفحمنى
نظراتك .. إنها فتاة سعيدة .. انظر كيف أن امرأتين تحبانك جدا حرمت
إحداهما وستحرم الأخرى من أن ترى (عروستك) ؟! ..
وجرفها التيار فنسيت نفسها ، وبكت بحرقة . ووقعت أنفاسها على
حدى وهى جالسة ، فخذى جنب فخذها ، وكأنها همت أن تغربنى
بقبله فوجدت لزاما على أن أتغافل .
وكفكفت دمعها ثم قالت وهى تبتسم :

— هل سببت لك ألماً ؟!

فأجبتها بخنان :

— لا .. لا تعزنى !

— فكر فى نفسك أنت . واعلم أننى لن أنساك ! لكن .. هل سيقبل
الله حجتى . سأتوسل إليه هناك . من يدرى ؟! .. أليس من الجائز أن
أدفن فى (المدينة) ؟!

وكان التجمل يلون خدها فأكدت لها ما سبق أن أكده أبى لأمى حين
نهته عن المعاصى : « من أن الله غفور رحيم وأنه لا ينبغي أن نسلبه إحدى
صفاته » .

فقالت فى فرح :

— إذا مت فاسأل عن أبنائى . إهم يعونك !

— وإذا عدت بالسلامة ؟

— سأذهب إليك إذا احتجت معونة منك ونعيش أحوين .. أليس
ذلك ممكناً ؟

— ولماذا لا يكون غير ممكن ؟!

— عدنى أنك تسارع بالزواج . هل تذكر ؟

— قصة الطيب ؟!

— حسن . أنت تذكر كل ما قلته لك . إذن فأنت تعبنى . وهل
تذكر آخر لقاء كان بيننا ؟ اجعله دائماً فى خاطرك . آه .. مالنا ضعفاء .
أشكرك فإنك ستساعدنى !! ..
— وسيساعدك الله . وداعاً !

وقبلت كفيها الاثنتين وذهبت تودعنى حتى الباب . وبعد أن خرجت
سمعت شهقة بكائها وهى تلقى على — من فتحة الباب
الموارب — بالنظرة الأخيرة .

* * *

وفي المساء التالى رأيت بدرية تنقل إلى بيتها ، وهى بملابس الحديد أشياء
عديتها غير لازمة لى .

فراش أمها وثيابها ، والدجاج والأرانب ، وقرطها الطويل وصوان
ملايسها . قلت فى نفسى : لقد أخذت حاجات العروسة فكيف لا تأخذ
حاجات المعجزة ؟ فلتأخذ إذن كل ما يشفى غلة طمعها . ثم خرجوا
من البيت ...

وفى الليلة الأولى من ليالى وحدنى ظلت الأشجار تحف طول الليل
والهواء يئن . والكلب ينبج . ورأيت أشباحا كثيرة ما كنت أتوقع أن
أراها ، كأن أرواح الذين سكنوا المنزل ورحلوا عنه كانت هائمة فيه . أنى
ينزل من فوق ليأخذ العصا ويحبك الطربوش ثم ينقل خطاه المنتظمة على
البلاط فى الصالة ويخرج . وسميرة مكبة على الأرض تمسحها وثوبها
مربوط على وسطها على هيئة حزام ، وكأننى أسمع (كبكية) الجرذل .
وأمنى ترتب النحاس فى المطبخ . وبدرية تحمل قفص الدجاج على رأسها
وتلف به الصالة كأنها تطوف حول ضريح ...

سألت نفسى : أهذا كابوس !؟

ثم أجبت بعد برهة : لقد كان العمر كله كابوسا !! ماذا أصنع لو
اعتزائى مرض وأنا وحدى . أو دخل على لص .. أو أصابنى إغماء ؟
ما أفضح حياة الوحدة ! إن المقبرة الوحيدة تثير حسرة المارين . آه ..

حتى المقابر تقوم على هيئة مجموعات .. يا إلهى . لن أستطيع أن أعيش
هكذا . لا بد أن يتغير كل شيء . حاولت أسمى — وربما كان على غير
قصد منها — أن تعوق تدفق الحوادث بكفها ، وقد نجحت في ناحية
وفشلت في ناحية . احتفظت لى لأنها تجبى ثم أحست أخيراً بالحسرة لأنها
احتفظت لى ...

سأترك هذا المكان . نعم . يجب .

وقبل الفجر استيقظت على بكاء طفل . ولم أدرك أين أنا ؟ ثم أفقت شيئاً
فشيئاً فذكرت تفاصيل الحوادث . فملأنى الرعب . وكان الكلب ينبع
في الحديقة والريح تثر . وصفيحة قديمة على السطح منزوعة من العشة كان
أولاد بدرية يلعبون بها فأخذ الهواء يلعب بها في الليل .

وسألت نفسي : ومن أين جاء بكاء الأطفال ؟ إنه كابوس ! كابوس ؟!
لقد كان العمر كله كابوساً ... سأترك هذا المكان . من يربنى وجه
الصباح ؟ .. كم هو جميل ! .. لا يعرف جماله إلا من هو في مثل موقعى ! ...
وفي الليلة التالية كان البيت مغلقاً لا يلعب فيه نور وأنا في شقة صغيرة
جديدة ، فيها بقية أثاثنا في حارة في قلب القاهرة ، مزحومة بالناس لأننى
ظلمات إلى الضجة ، أفكر — والكلب مشلود إلى شكل الشقة — في
التي ستشاركنى سكنى .

وحين أشرقت شمس الصباح التالى وألقت بأشعتها على بيت حلوان .
كانت الحديقة شديدة الظماً . وسلم السلامك مغراً وعليه آثار المطر .
والباب الداخلى موصداً بالمفتاح . وباب الحديقة المصنوع من قضبان
الحديد مغلقاً بقفل وسلسلة ، وقد علق في أعلاه لافتة من الورق المقوى
كتب عليها بحروف كبيرة : « الأرض والأنقاض للمبيع » !!

وَمَرَّ عَلَيْهِ أَوَّلُ رَجُلٍ فَهَمَسَ وَهُوَ يَحْرُكُ رَأْسَهُ :
— سُبْحَانَ اللَّهِ ! .. أَيْنَ سَكَانُهُ !؟ .. لَكِنْ .. الْأَمْرُ لَا يَخْلُو مِنْ
فُرْصَةٍ .. لِأَنَّ الْأَرْضَ فِي هَذِهِ الْبُقْعَةِ أَصْبَحَتْ غَالِيَةَ الثَّمَنِ !
وَلَمْ يَشْعُرْ ذَلِكَ الَّذِي حَسَبَ الْحَسْبَةَ أَنَّنِي خَلَفْتُ بَيْنَ هَذِهِ الْجُلْدَانِ أَعَزَّ
ذَكَرِيَّاتِ الشَّبَابِ !

(الروضة — القاهرة — في يناير ١٩٥٧)

دار مصر للطباعة
٣٧ شارع كامل صدق

رقم الإيداع ٣٣٢٤
الترقيم النوى ٩٧٧

مكتبة
الشيخ محمد بن عبد الوهاب



الطبعة الأولى ١٤٠٠ هـ

الطبعة الأولى ١٤٠٠ هـ